الكلمة القرآنية

إعداد

د. بسيوني عبد الفتاح فيود

أستاذ البلاغة والنقد في جامعة الملك عبد العزيز بجدة
المملكة العربية السعودية

Scanned by CamScanner

تمهيد

للّه الّذي أنزل على عبده الكتاب ولمْ يجعل لـه عوجا قيّما ليُنْذر بأسا شديدا منْ لدُنْهُ ويُبشّر المُؤمنين الّذين يعْملُون الصّالحات أنّ لهُمْ أجْرا حسنا. والصلاة والسلام على من أمره ربه أن يبين للنّاسَ ما نُزّل إليهم .. اللهم صلّ وسلّم وبارك عليه وعلى آله وصحابته أجمعين وبعد..

فقد شُغل العلماء بدراسة مفردات اللغة من جهات مختلفة.. من جهة الدلالة الوضعية لتلك المفردات.. من جهة صيغها وأبنيتها.. من جهة ما يكمن وراء تلك المفردات في سياقاتها من نكات وأسرار وما توحي به اللفظة من معنى تصطفى من أجله ويؤثر التعبير بها لإفادته.. من جهة الدلالات المجازية لتلك المفردات.

فعلماء اللغة قد شغلوا بجمع مفرداتها وبيان الدلالة الوضعية لهذه المفردات وبعض من الدلالات المجازية.. وأمام الدارس تلك المعاجم اللغوية يرجع إليها للوقوف على معاني مفردات اللغة.

وعلماء الصرف شغلوا ببنية المفردات وصيغها، فاهتموا بدراسة المصادر وتحديد أوزان المصادر القياسية وبدراسة المشتقات وتحديد أوزانها وأوزان الأفعال وبدراسة النسب والتصغير والإعلال بالنقل وبالقلب.. إلى غير ذلك من قواعد الصرف ومسائله.

وما أشبه علم الصرف بعلم التشريح الطبي، فالصرفي ينهض بتشريح مفردات اللغة لتحديد بنيتها وصيغها وأوزانها فيقول - مثلا - في دراسة الإعلال: إنّ " استقام " أصلها: استقوم بسكون القاف وفتح

Scanned by CamScanner

الواو فحدث فيها إعلالان: إعلال بالنقل، وإعلال بالقلب حيث نقلت حركة الواو إلى القاف الساكنة قبلها فوقعت الواو ساكنة وقبلها فتح فقلبت الفا فصارت (استقام).. والناظر في مسائل علم الصرف يتجلى له ان الصرفي مشغول ببنية المفردات وتحديد صيغها وأوزانها.

واتجهت عناية علماء البلاغة وعلماء الأدب إلى ما يكمن وراء مفردات اللغة في سياقاتها من نكات وأسرار بلاغية، وما توحى به تلك المفردات من معان، فتصطفى اللفظة ويؤثر التعبير بها لإفادة هذا المعنى أو ذاك.

كما شغل البلاغيون بدراسة المعاني المجازية للمفردات، وتحديد العلاقة بين المعنى المجازي والمعنى اللغوي لتلك المفردات، وبيان القرينة المانعة من إرادة المعنى اللغوي.. إلى غير ذلك من المباحث البلاغية التي تتناول الكلمة المفردة في سياقاتها.. والتي شغل البلاغيون بدراستها في علوم البلاغة.

وهذا البحث ينهض بدراسة **الكلمة القرآنية، أو بمعنى أدق يعطي** شعاعا من نور تسطع به **الكلمة القرآنية في تراكيبها وسياقاتها.. وقد** وقفت أمام قول ابن عطية - **رحمه الله** -: وكلام الله - **تعالى - لو** انتزعت منه لفظة، ثم أدير **اللسان العربي كله على أن نجد كلمة أخرى** تصلح مكانها ما وجدنا[١].

وقفت أمام هذا القول، **ثم انطلقت منه إلى آيات الذكر الحكيم** أتأمل وأتدبر كما أمر ربي قائلا **عز من قائل: " أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ**

---

(١) انظر الإتقان ٤ / ٩.

Scanned by CamScanner

كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا (٨٢) النساء.. أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها (٢٤) محمد ".. ولما وقفت أمام قول ابن عطية – رحمه الله – ثم انطلقت منه الى آيات الذكر الحكيم أتدبرها وأتأمل.. انعقدت النية على تحقيق هذا القول وتجليته بالتتبع والاستقصاء.. ولذا حددت وجهتي على النحو الآتي:

أولا: اخترت كلمة هي كلمة " الرأس " وتتبعت مواقعها في آيات القرآن الكريم وأخذت أتأمل استعمالاتها في تلك المواقع ليتجلى لي أن كلمة " الرأس " معرفة بالألف واللام لا يصح أن يستبدل بها كلمة " رأسي " معرفة بالإضافة.. ولا أن يستبدل بإضافتها إلى ضمير الغائب إضافتها إلى ضمير المخاطب أو إلى الاسم الظاهر.. المعنى يأبى ذلك ويرفضه، ويحول دون أن يتم هذا الاستبدال.

لقد تجلت أمامنا أسرار ولطائف بلاغية كامنة وراء استعمالات كلمة "الرأس" في القرآن الكريم نعرض لجملة منها إن شاء الله – تعالى – في هذا البحث.

ثانيا: اخترتُ كلمات مترادفات أو بمعنى أدق كلمات أخوات كما سماها الزمخشري – رحمه الله – [1].. وأنا أميل إلى تسمية الزمخشري وأرجحها؛ لأنَ تلك الكلمات يجمعها معنى عام، وتنفرد كل كلمة منها بالدلالة على معنى لا يوجد في غيرها من أخواتها.

اخترت من هذه الأخوات " الفتيل والنقير والقطمير" وتتبعت مواقعها في آي الذكر الحكيم.. ثم اخترت " السنة والعام والحول

[1] انظر الكشاف ٢ / ٥٢٤

Scanned by CamScanner

والحجة" وتتبعت أيضا مواقعها في آيات القرآن الكريم وقد تجلى أمامنا بالتتبع والاستقصاء لمواقع تلك الأخوات المذكورة في آيات الكتاب العزيز مزايا بلاغية.. وأسرار ولطائف.. نعرض في هذا البحث – إن شاء الله تعالى– لجملة منها.

وكان من أهم ما تجلى أمامنا أننا لو رُمنا وضع لفظ " الفتيل " مكان أحد أخويه " النقير" أو " القطمير" بدا لنا خلل، وكذا لو أردنا وضع كلمة " السنة " مكان إحدى أخواتها " العام " أو " الحول " أو " الحجة " بدا لنا اضطراب وقلق.. فسبحان ربي القائل:" أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا "(٨٢) النساء.

ثالثا: وقفت أمام التنوع في تصوير القرآن الكريم أتدبر منازع التصوير، وأتأمل مفردات تلك المنازع في تراكيبها، وأبحث وأنقب عن أسرار التنوع في تلك المفردات وأراجع السياق متأنيا حتى تجلَّت أمامي أسرار بلاغية.. ودقائق ولطائف.. كامنة وراء هذا التنوع.

وهذا الذي حددته ووجهت وجهي إليه، ودرسته متأنيا نعرض له بشيء من التفصيل والإيضاح **في هذا البحث – إن شاء الله تعالى –** لنرى كيف تأتي الكلمة القرآنية **منسجمة في سياقها.. متآلفة مع** جاراتها في هذا السياق.. **يأبى السياق إباء.. أن يستبدل بها غيرها..** وبهذا يتحقق لنا استحالة أن **نجد في اللسان العربي كله كلمة تصلح** لفظا لكلمة انتزعت من جملة **قرآنية كريمة.**

وما أدق تعبير ابن **عطية: " وكلام الله لو انتزعت منه لفظة "** إنه يوحي بتمكن الكلمة القرآنية **في جملتها، وتآلفها في تركيبها،**

واستحواذ السياق عليها فأتى لآخذ أن يأخذها من جملتها ليستبدل بها غيرها؟ هذا الأخذ لن يكون سهلا فهو انتزاع لها ثم إن ذاك الاستبدال محال لأن السياق يرفض الكلمة البديلة ويأباها.

نسأل الله تعالى أن يرزقنا فهما صحيحا وتدبرا سديدا لآيات الذكر الحكيم وأن يفقهنا فيه ويعلمنا من أسراره.. اللهم آمين.

Scanned by CamScanner

استعمالات كلمة " الرأس " في القرآن الكريم

جاءت كلمة " الرأس " في ثمانية عشر موضعا في آيات الذكر الحكيم.. مفردة في سبعة مواضع.. وجمعا في أحد عشر موضعا.. ولم ترد مثناة.. وكانت في تلك المواضع جميعها معرفة لم ترد في أي منها نكرة ولعل ذلك يوحي بعظم الرأس وأهميتها فهي أشرف أعضاء الجسد وأعظمها فائدة.. فيها العقل المدبر واللسان الناطق والعين الناظرة والأذن الواعية.. وما سميت الرأس رأسا إلا لعلوها وارتفاعها.. ومن ذلك: رأس الجبل.. ورأس كل شيء أعلاه.(١)

جاءت كلمة " الرأس " مضافة إلى الاسم الظاهر في ثلاثة مواضع في قوله تعالى: " يا أَيُّها الَّذين آمنُوا اتَّقُوا اللَّه وذرُوا ما بقي من الرِّبا إنْ كُنْتُمْ مُؤْمنين (٢٧٨) فإنْ لمْ تفْعلُوا فأْذنُوا بحرْب من اللَّه ورسُوله وإنْ تُبْتُمْ فلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوالكُمْ لا تظْلمُونَ ولا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) البقرة "

وقوله عز وجل: " **ولَمَّا رجعَ مُوسَى إلَى قَوْمه غَضْبَانَ** أسفا قال بئسما **خلفْتُمُوني منْ بَعْدي أَعجلْتُمْ أَمْرَ ربِّكُمْ وأَلْقَى** الألواح وأخذ برأس **أَخيه يجُرُّهُ إليْه قَال ابْنَ أُمَّ إنَّ الْقَوْمَ** استضعفوني وكادوا **يقْتُلُونَنَي فلا تَشْمتْ بيَ الأَعْدَاءَ ولا تَجْعلْني** مع القوم الظالمين (١٥٠) الأعراف "

(١) انظر لسان العرب مادة: رأس.. وتفسير القرطبي ٦ / ٥٩

وقوله تعالى: " أذلك خيرٌ نزلا أم شجرة الزقوم (٦٢) إنا جعلناها فتنة للظالمين (٦٣) إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم (٦٤) طلعها كأنه رءوس الشياطين (٦٥) الصافات "

وجاءت مضافة إلى ضمير التكلم في موضعين هما: " ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إني أراني أعصر خمرا وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين (٣٦) يوسف... قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي (٩٤) طه ".

وجاءت مضافة إلى ضمير الخطاب في ثلاثة مواضع هي: " ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدي محله البقرة:١٩٦... يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين المائدة:٦... لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون الفتح:٢٧ ".

وجاءت كلمة " الرأس " مضافة إلى ضمير الغيبة في تسعة مواضع هي: فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك البقرة:١٩٦... يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمرا وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه يوسف:٤١... وولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار (٤٢) مهطعين مقنعي رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء (٤٣) ابراهيم... فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة

فسينغضون إليك رءوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا (٥١) الإسراء... ثم نكسوا على رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون (٦٥) الأنبياء... هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رءوسهم الحميم (١٩) الحج... ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون (١٢) السجدة... خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم (٤٧) ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم (٤٨) الدخان... وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رءوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون (٥) المنافقون "

وجاءت كلمة " الرأس " معرفة بالألف واللام في موضع واحد.. في قوله تعالى: " قال ربِّ إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك ربِّ شقيا (٤) مريم ".

وبإنعام النظر في تلك المواضع وتأمل التراكيب والسياقات التي وردت بها كلمة " الرأس " يتجلى لنا في المواضع الثلاثة الأولى استعارة الرءوس لأصول الأموال في الموضع الأول منها.. وتوحي تلك الاستعارة بعظم هذه الأصول ونقائها.. إن أصول الأموال بالنسبة للربا كالرأس بالنسبة لسائر أعضاء الجسد فهي تستمد نقاءها وسموها من شرف الرأس وعظمها وفضلها، وتلك دقيقة من دقائق التعبير القرآني ففي سياق الحديث عن الربا وتصوير بشاعته وبيان ضرره على المجتمع وتهديد وتخويف آكليه يأتي هذا التعبير: " وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم ... فتسمو الرءوس بأصول الأموال، وتعلو بها، وتلحقها بتلك الصدقات

التي يربيها الله – عز وجل – وبتلك الأموال التي تنفق في سبيل الله وابتغاء مرضاته فيُضاعف ثوابها.

ونجد في الموضع الثاني إضافة كلمة " رءوس " إلى الشياطين في هذا التشبيه: " طَلْعُهَا كأَنَّهُ رُءُوسُ الشَيَاطِين "... وتوحي هذه الإضافة بالإغواء والوساوس والنزغ والهمزات التي امتلأت بها رءوس الشياطين لقد صار الأثيم في سواء الجحيم يطعم من شجرة الزقوم وكلما ذاق طلعها تذكر رأس الشيطان الذي أغواه، وزين له المعصية. ووسوس له، فليس هنالك أقبح من رءوس الشياطين في عقل وخيال أولئك الآثمين الذين عتلتهم الزبانية إلى سواء الجحيم، وصار طلع شجرة الزقوم طعامهم ذلك هو القبح الذي أراه منضويا وراء تشبيه طلع شجرة الزقوم برءوس الشياطين.

إن البلاغيين يرون أن التشبيه في الآية تشبيه وهمي مراد به تقبيح المشبه بإلحاقه برءوس الشياطين وأنه قد جرى على حد قول امرئ القيس:

أيقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال [1]

ولا أستريح لهذا الرأي إذ لو كان المراد التقبيح الذي يرونه لشبه الطلع بالوجه فقيل: طلعها كأنه وجوه الشياطين.. لأن القبح إنما يرى في الوجه لا في الرأس.

[1] انظر الإيضاح ٣ / ١٧

ويرى بعضٌ أنّ المراد برءوس الشياطين شجرة معروفة يقال لها: الأستن وهي خشنة مرة منكرة الصورة.. وإليها الإشارة في قول النابغة:

تحيد عن أستن سود أسافله ... مثل الإماء الغوادي تحمل الحزما

ويرى آخرون أنّ الشياطين جنس من الحيات ذوات أعراف لها صورة قبيحة المنظر.. أنشد المبرد:

وفي البقل إن لم يدفع الله شره ... شياطين يعدو بعضهن على بعض

وعلى هذين الرأيين يكون تقبيح المشبه تقبيحا حسيا حيث شبه الطلع بتلك الشجرة المعروفة لديهم أو بتلك الحيات[1]

والذي أراه وأرجحه ما ذكرته أولا، وهو أنّ القبح راجع إلى ما يكمن برأس الشيطان من همزات ونزغ ووساوس تلك التي أودت بالآثمين إلى جهنم، فصاروا وهم **بها يطعمون من شجرة الزقوم لا** يجدون صورة اقبح لطلع تلك الشجرة **من رءوس الشياطين وما يكمن** بداخلها.

ويأتي الموضع الثالث **في سياق الحديث عن موسى - عليه** السلام - عندما رجع إلى قومه **غضبان أسفا والأنبياء لا يغضبون إلا إذا** انتهكت محارم الله.. وكان سبب **غضبه - عليه السلام - فتنة قومه** واتخاذهم العجل من دون الله.. **لما رجع موسى وعاين ذلك اشتد غضبه**

[1] انظر تفسير الفخر الرازي ٢٦ / ١٤٢.. وروح المعاني ٢٣ / ٩٥

ودليل تلك الشدة إلقاؤه الألواح وأخذه برأس أخيه وجره إليه.. إن الأخذ إنما يكون بالشعر ولكن الشعر حذف وتعلق الأخذ بالرأس ليوحي ذلك بقوة الأخذ وشدته كما عبر عن ضمه إليه بالجر لنفس هذا الغرض.

ومراد موسى بتلك الشدة أن يفصح له هارون – عليهما السلام – عن سبب سكوته عن مقاومة القوم ومنعهم من أن يعبدوا العجل.. لم يرد بها إهانة ولا إذلالا.. فقد يتوهم ذلك بعض.. كما أنه لم يرد من الأخذ بالرأس أو اللحية تسكينا لهارون وتكريما له.. فإن بعض العلماء يرى ذلك دفعا لتوهم الإهانة والإذلال[١].

نعم كان متعارفا عند العرب أن يقبض الرجل على لحية أخيه أو صاحبه تكريما له وتعظيما لشأنه، ولكن ذلك له مقاماته، ولا يكون من الغاضب، ولذا فإن أخذ موسى برأس أخيه لم يكن تكريما، وكذا شدة الأخذ لم تكن إذلالا وإهانة بل ليفصح له هارون عن السبب فيعلم موسى ما لديه ويقف على حقيقة ما حدث.

لقد قص القرآن الكريم نبأ رجوع موسى – عليه السلام – إلى قومه بعد تلقي الألواح في موضعين: أولهما في سورة " الأعراف " وهو الذي بين يدينا، وثانيهما في سورة " طه ".. وقد اختلف سياق الموضعين ففي السياق الأول تمكن الغضب من موسى ولوحظت شدته، ولذا صرح بسكونه بعد أن علل له هارون – عليهما السلام – سبب سكوته وعدم تصديه للقوم فهدأ موسى.. قال تعالى: " وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ

[١] انظر تفسير القرطبي ٧ / ١٨٤

مُوسى الْغضبُ أخذ الْألْواح وفي نسْختها هُدى ورحْمةٌ للذين هم لربهم يرْهبُون (١٥٤) الأعراف "... وقد اقتضى هذا السياق الإيجاز وطى الكلمات فحذف حرف النداء " يا " وطويت " اللحية" ولم يحدث موسى أخاه بل عمد إليه بعد أن ألقى الألواح.. ولنقرأ: " ولمَا رجع مُوسى إلى قَومه غضْبان أسفا قال بئسما خلفتُمُوني منْ بعْدي أعجلْتم أمر ربكم وألْقى الْألْواح وأخذ برأْس أخيه يجرُّهُ إليْه قال ابْن أُمَّ إنَّ الْقوم اسْتضْعفُوني وكادُوا يقْتُلُونني فلا تشْمتْ بي الْأعْداء ولا تجْعلْني مع الْقوْم الظَّالمين (١٥٠) الأعراف ".

وفي السياق الثاني قلت حدة الغضب وقد اقتضى ذلك الإطناب.. فرأينا سعة وامتدادا في الحوار: " قال يا هارُونُ ما منعك إذْ رأيْتهم ضلُّوا (٩٢) ألَّا تتَّبعَن أفعصيْت أمْري (٩٣) طه ".. ورأينا التصريح باللحية وبحرف النداء "يا": " قال يا ابْنَ أُمَّ لا تأْخذْ بلحْيتي ولا برأسي انى خشيتُ أنْ تقُول فرَّقْت بيْن بني إسْرائيل ولمْ ترْقبْ قوْلي (٩٤) طه .. فلكل مقام مقال.

وفى المواضع الثلاثة التي **أضيفت فيها كلمة " الرأس " إلى ضمير الخطاب** كان حديث السياق **عما شرعه الله لعباده في أداء فريضة** الحج وفي شأن التطهر استعدادا **لأداء فريضةِ الصلاة.. والخطاب مما** يلائم مقام التشريع، ولذا جاءت **كلمة " الرأس " مضافة إلى ضمير** الخطاب في تلك المواضع الثلاثة: " **وأتمُّوا الْحجَّ والْعمْرةَ للَّه فإنْ** أحصرْتم فما اسْتيْسر من الْهدْي **ولا تحْلقُوا رُءُوسكُمْ حتَّى يبْلُغ الْهدْيُ** محلَّهُ فمنْ كان منْكُمْ مريضا أوْ **به أذًى منْ رأسه ففدْيةٌ منْ صيامٍ أوْ** صدقةٍ أو نسُكٍ البقرة:١٩٦... **لقدْ صدق اللَّهُ رسُولهُ الرُّؤْيا بالْحق**

لتدخلن المسجد الحرام إن شاء اللّه آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا (٢٧) الفتح... يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين المائدة ".

ومما يلاحظ أن سياق الحديث عن الحج والعمرة في سورة البقرة يختلف عن سياق الحديث عنهما في سورة " الفتح " فالسياق الأول بيان وتفصيل لأحكام الحج والعمرة ولذا توالت الجمل القرآنية تحمل كل جملة منها حكما من أحكام الحج والعمرة جليا واضحا.. وكلمة رءوسكم [البقرة/١٩٦] ثم أضيفت إلى ضمير الغائب ثانيا في قوله: فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه " [البقرة/١٩٦] ولكن الغائب هنا في سياق الخطاب " فمن كان منكم " فليس ضمير الغيبة هنا كضمير الغيبة في بقية المواضع التسعة.. إنه بمثابة الخطاب فلا تنطبق عليه أحكام ضمائر الغيبة الآتي بيانها.

أما السياق في سورة " الفتح " فنجده تبشيرا للمؤمنين بتحقيق وعد الله ودخولهم المسجد الحرام آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين لا يخافون ولذا جاء الخبر مؤكدا بلام القسم والنون المشددة " لتدخلن " مقرونا بالمشيئة " إن شاء الله".. معبرا عن أجزائه بالأسماء " آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين ".. نافيا الخوف بـ "لا " التي تفيد امتداد النفي.

ومما هو معلوم أن الحلق والتقصير لا يكونان عند دخول المسجد الحرام ابتداء بل بعد الانتهاء من الطواف والسعي ولكن النظم الكريم آثر التعبير عنهما ابتداء عند دخول المسجد "لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله امنين محلقين رءوسكم ومقصرين" لما في ذلك من بث لمعاني الفرح والسرور إذ يكمن وراء الحلق والتقصير ابتهاج المؤمن وفرحته لشعوره بإتمام المناسك.

وفي شأن الاستعداد للصلاة بالتطهر والوضوء جاء الأمر بمسح الرأس واقعا بين الأمر بغسلين غسل الأيدي وغسل الأرجل.. قال تعالى: "فاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ" [المائدة/٦] وفي هذا إشعار بوجوب الترتيب بين أعضاء الوضوء وهو ما ذهب إليه كثير من العلماء.(١)

كما أن في تأخير الأرجل والمجيء بها بعد ما يمسح وهو الرأس ما يشعر بوجوب الاقتصاد وعدم الإسراف في استعمال الماء لأن غسلها فيه مظنة الإسراف المنهي عنه.. **وليس في تأخيرها دلالة على أنها** يمسح بها كما يمسح بالرأس.. **حيث إنه قد حددت الغاية التي يصل إليها** الغسل فيها قال تعالى: " **فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ** وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ **إِلَى الْكَعْبَيْنِ** "... **والمسح لم تحدد له غاية** في الشريعة.(٢)

(١) انظر تفسير الجلالين: ٩٣
(٢) انظر الكشاف ١ / ٥٩٧

Scanned by CamScanner

هذا وقد دخلت الباء على الممسوح من الأعضاء دون المغسول
بها، لان الباء للالصاق فمعنى: " وامسحوا برءوسكم ... اجعلوا
المسح ملاصقا بها فالباء تشير إلى وجوب مباشرة العضو بالمسح. ولم
يحسن دخول الباء على المغسول من الأعضاء لدلالة الغسل على
المباشرة دون المسح.. وقال بعض: إن الباء زائدة للتاكيد.. وقال
آخرون: انها للتبعيض. ولذا جوزوا الاقتصار على مسح بعض الراس..
ولكن الامام مالك بالأحوط. فأوجب مسح كل الرأس[1]

وفي المواضع التي أضيفت فيها كلمة " الرأس " إلى ضمير
الغيبة كان حديث السياق عن عناد الكافرين وإعراضهم عن الحق
ودعوهم واستكبارهم.. هذا في الدنيا.. وأما في الآخرة فكان حديث
السياق عما ينتابهم من الندم والتحسر وعما يصطلونه من العذاب في
جهنم.. ومثل هذا السياق يقتضي إهمال المتحدث عنه وعدم الالتفات
إليه ولذا أضيفت كلمة "الرأس" في تلك المواضع إلى ضمير الغيبة.

ومما يلاحظ أن تلك الرءوس المعاندة المستكبرة التي انغمس
رءوسها في الكفر والضلال.. هذه الرءوس أبرزها النظم الكريم في الدنيا
متحركة حركة تكبر واستعلاء وسخرية واستهزاء.. تلك الحركة نراها
في قوله تعالى: " وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا
(٤٩) قل كونوا حجارة أو حديدا (٥٠) أو خلقا مما يكبر في صدوركم
فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة فسينغضون إليك رءوسهم

[1] ينظر البرهان في علوم القرآن ٤ / ٢٥٣.. وأنوار التنزيل

ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا (٥١) الإسراء ... وفي قوله جل وعلا: " وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رءوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون (٥) المنافقون.

فقد عبر بحركة الرأس في المعاضعين عن التكبر والاستعلاء والسخرية والاستهزاء.. إذ إنغاض الرأس: تحريكها إلى فوق وإلى أسفل تكذيبا واستبعادا.. ولي الرأس: إمالتها من جانب إلى جانب تكبرا وإعراضا.(١)

ولذا نهى لقمان ابنه وهو يعظه عن هذه الحركة المشعرة بالتكبر والتعالى قال تعالى: " لا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور (١٨) لقمان ".. فالصعر داء يصيب البعير يلوي منه العنق واختيار هذا اللفظ " تصعر " فيه تنفير من تلك الحركة حركة التكبر والاستعلاء التي يبدو صاحبها في صورة بعير أصيب بداء الصعر فالتوى عنقه وهي صورة تفر منها الأنفس.(٢)

كما استخدم النظم الكريم كلمة " **الرأس** " **في تصوير ذويها** المعاندين المتكبرين في صورة **المتخبط الذي لا يدري ما يفعل وكأنه قد** فقد عقله.. نرى ذلك في هذا الحوار: " **قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا** ابراهيم (٦٢) قال بل فعله كبيرهم **هذا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (٦٣)** فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم **أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى** رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء **يَنْطِقُونَ (٦٥) الأنبياء "... فبعد أن سمع**

(١) انظر تفسير الفخر الرازي ٢٠ / ٢٢٨.. **ولسان العرب: نغض ولوى**
(٢) انظر الكشاف ٣ / ٢٣٤.. وفي ظلال **القرآن ٥ / ٢٧٩٠**

Scanned by CamScanner

المعاندون إجابة إبراهيم – عليه السلام – رأينا لهم حالين مختلفتين أولاهما: أنهم رجعوا إلى أنفسهم رجوع تدبر وتفكر " فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ".. ثانيتهما: ارتدادهم إلى ما كانوا عليه من باطل وضلال.. لقد استمرت الحال الأولى حينا " ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ".. جعل النظم الكريم ارتدادهم نكسا على الرءوس، وتلك استعارة تمثيلية تظهر أولئك المرتدين في هذه الصورة العجيبة صورة من نكس على رأسه.. إن بناء الفعل للمفعول يوحي بغياب عقولهم فهم لم ينكسوا رءوسهم بل نكسها لهم ناكس.. في الحال الأولى بني الفعل " رجع " للفاعل حيث كان الرجوع رجوع تفكر وتدبر وفي هذه الحال بني الفعل " نُكس " للمفعول حيث غاب العقل ولم يعد هنالك تفكير ولذا أقروا بما يوجب الحجة عليهم " لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ".

ولم يرد النكس على الرءوس تمثيلا للارتداد إلى الباطل والضلال إلا في هذه الآية الكريمة.. وقد جاء التمثيل له في آيات أخر بالانقلاب على الأعقاب والنكوص عليها.. قال تعالى: " وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ البقرة:١٤٣ "... وقال تعالى: " وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) آل عمران "... وقال تعالى: " قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ (٦٦) المؤمنون ".

تلك رءوس المعاندين في الحياة الدنيا.. استخدمت في تصويرهم حال ذويها وإبراز عنادهم واستهزائهم.. فماذا عن تلك الرءوس في

Scanned by CamScanner

الآخرة ؟ إن تلك الرءوس التي أنغضت ولويت وصغر خدها.. تلك الرءوس التي حركها ذووها في الدنيا كبرا واستعلاء وسخرية واستهزاء ونكسوا عليها رافضين الحق والهدى.. ترى يوم القيامة ساكنة لا حراك لها.. يحكي سكونها تحسر ذويها وندمهم على ما فرطوا في جنب الله.. ويظهر ما اعتراهم وبدا عليهم من خزي واستحياء وذل وانكسار. قال تعالى: " ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون (١٢) السجدة .. وقال جل وعلا: " ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار (٤٢) مهطعين مقنعي رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء (٤٣) إبراهيم ".

ترى في الموضع الأول رءوس المجرمين وقد نكسوها خزيا وندما وتولت عنها حركة التكبر والتعالي والسخرية والاستهزاء.. لقد صار المجرمون عند ربهم ووقفوا على قبائح أعمالهم ولم يعد أمامهم إلا الندم بل شدة الندم والتحسر.. ويصور تلك الشدة في النظم الكريم التعبير باسم الفاعل في قوله: " ناكسو رءوسهم " الذي يفيد دوام النكس واستمراره.. والتعبير بلفظ الربوبية في قوله: " عند ربهم " لأن المربوب إذا أساء إلى ربه ثم وقف بين يديه كان في غاية الخزي والخجل.. وحذف جواب "لو" حيث تذهب النفس كل مذهب في تصوره وتقديره.. وحذف القول قبل نداء الندم والتحسر وتقديره: يقولون ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا.. فهذا الحذف قد جعل القارئ ينتقل مباشرة من مشاهدة حال المجرمين إلى سماع ما يجري على ألسنتهم

من نداء الندم ودعاء التحسر ومكنه من الوقوف على الأمرين معا دون أن يحول حائل أو يفصل فاصل بينهما.

وترى في الموضع الثاني رءوس الظالمين وقد أقنعت أي: رفع بصرها ووجه إلى السماء في ذل وخشوع وشخوص فلا يصرف عما ينظر إليه.. يقال أقنع فلان رأسه: إذا رفع بصره ووجهه الى ما حيال رأسه من السماء ينظر في ذل وخشوع وقد شخص بصره فلا يصرف عما ينظر إليه.(١)

لقد أصابهم الذهول وأخذتهم الدهشة فشخصت أبصارهم من هول ما رأوا ودام هذا الشخوص فلم يرتد إليهم طرفهم بل ظلت رءوسهم مقنعة.. ثبت بصرها مصوبا إلى السماء لا يصرف عما ينظر اليه.. ومن صار في هذه الحال فإنه يظل واقفا لا يتحرك، وقد يصرخ مستغيثا لكنهم، وهم في هذه الحال يهرولون في ذل وخشوع مسرعين إلى مصيرهم الذي ينتظرهم، وقد انخرست ألسنتهم فلا يتكلمون.. يوحي بذلك وصفهم بالإهطاع.(٢)

وإذا كانت هذه هي حالهم الظاهرة التي تبدو لمن نظر إليهم فيراها رأي العين.. فإن قلوبهم قد تمكن منها الرعب وأفئدتهم قد تغلغل إليها الفزع فصارت هواء أي: خلاء وصفراً لا تضم شيئا مما كانت تعيه وتحفظه.. " وأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ".

(١) انظر لسان العرب مادة: قنع
(٢) انظر تفسير الفخر الرازي ١٩ / ١٤٤

Scanned by CamScanner

تلك حال المجرمين عند ربهم يوم القيامة وحال الظالمين في ذلك اليوم المشهود.. الندم والتحسر والذل والانكسار.. " ناكسو رءوسهم عند ربهم ".. الدهشة والتخبط والخوف والفزع.. "إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار (٤٢) مهطعين مقنعي رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء ".

فإذا ما حكم الله بين العباد وانتهى يوم الفصل وصار أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار رأينا رءوس هؤلاء المجرمين الظالمين يصب من فوقها الحميم.. قال تعالى " هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رءوسهم الحميم (١٩) يصهر به ما في بطونهم والجلود (٢٠) ولهم مقامع من حديد (٢١) كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق (٢٢) الحج "... ويصب فوقها من عذاب الحميم.. قال تعالى إن شجرة الزقوم (٤٣) طعام الأثيم (٤٤) كالمهل يغلي في البطون (٤٥) كغلي الحميم (٤٦) خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم (٤٧) ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم (٤٨) ذق إنك أنت العزيز الكريم (٤٩) إن هذا ما كنتم به تمترون (٥٠) الدخان ".

في الموضع الأول يصب **الحميم من فوق رءوس الكافرين بعد** أن قطعت لهم ثياب من نار وهذا **الحميم الذي يصب من فوق رءوسهم** يصهر به ما في بطونهم وتصهر **به جلودهم وهنالك مقامع من حديد** كلما أراد الكفرة أن يخرجوا **من جهنم لشدة ما يلاقونه من عذاب** أعادتهم الملائكة إليها بتلك **المقامع، ويقال لهم توبيخا وتهكما: " ذوقوا** عذاب الحريق" [آل عمران/١٨١].

وفي الموضع الثاني يصب من عذاب الحميم فوق رأس الأثيم
بعد أن يطعم من شجرة الزقوم فيملأ منها بطنه ويشتد ألم الطعام به
يغلي في بطنه عندئذ تؤمر الزبانية بأخذه وجره بعنف إلى وسط جهنم
لى سواء الجحيم، ثم يصبون فوق رأسه من عذاب الحميم، ويقال له
ذلا وإهانة: ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ [الدخان/٤٩].

ومما يلاحظ في سياق الموضعين أن عناد الكافرين واستهزاءهم
وتمادبهم في الغي والضلال قد فصل وأبرز في سورة " الدخان " دون
سورة " الحج " وقد اقتضى ذلك المبالغة في وصف عذاب الأثيم في
سورة " الدخان " ليتلاءم مع تفصيل العناد في سياق السورة الكريمة..
ن يكون وصف عذاب الكافرين في سورة " الحج " دون وصف عذاب
لأثيم مبالغة ليتلاءم ذلك أيضا مع سياق السورة الكريمة سورة " الحج
ويتجلى لنا ذلك فيما يلي:

١- أن الذي يصب فوق رأس الأثيم عذاب الحميم والذي يصب
من فوق رءوس الكافرين الحميم، وصب عذاب الحميم أبلغ من صب
الحميم؛ لأن صب العذاب طريقه الاستعارة كما في قوله تعالى: "رَبَّنَا
أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦) الأعراف ".. حيث شبه العذاب
والصبر بالمائع الذي يصب ويفرغ ثم خيل لهما بالصب والإفراغ على
سبيل الاستعارة المكنية.(١)

(١) انظر الفتوحات الإلهية ٤ / ١١٠

٢- أن العذاب يصب فوق رأس الأثيم أما الحميم فانه يصب من فوق رءوس الكافرين وما يصب فوق الرأس أبلغ في الإيلام مما يصب من فوقها لدلالة الأول على الملاصقة دون الثاني فـ" من " في الآية بيانية قد بينت جهة الصب وأنه من فوق رءوس الكافرين.. وخلو التعبير من "من" يدل على اقتراب المصبوب وملاصقته والتحامه براس الأثيم.

٣- أن الذي يعذب في سورة الدخان شخص واحد قد كثرت آثامه حيث توحي صيغة المبالغة " أثيم " بتلك الكثرة.. هذا الأثيم اجتمعت عليه الزبانية وعتلوه أي: جروه بعنف إلى سواء الجحيم فصار هناك يعذب وحده في مكان قد خصص له حيث لم يفصح السياق عن أحد يشاركه العذاب.. كما يودع - ولله المثل الأعلى - السجين الذي كثر شغبه في سجن لحاله.. ويحبس حبسا انفراديا.. أما في سورة " الحج " فالذين كفروا يعذبون تعذيبا جماعيا قطعت لهم ثياب من نار وصاروا في جهنم لم يجروا بعنف إلى سواء الجحيم كما جر الأثيم وإذا كان الكفرة في سورة " الحج " قد فصلت لهم ثياب من نار فإن الأثيم في سورة "الدخان" قد ابتلعته جهنم حيث صار وحده في سواء الجحيم.. ان الزبانية هناك على أبواب جهنم حراسا، من فكر في الخروج من جهنم أعادوه إليها بتلك المقامع، أما الزبانية هنا فقد عتلوا الأثيم إلى سواء الجحيم.

٤- صرح في سورة " الدخان " بشجرة الزقوم.. وتوالت تلك التشبيهات "إنّ شجرة الزقُّوم (٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (٤٦) ".. ولم نر شيئا من ذلك في سورة "

الحج ".. كذلك جاء التقريع والتهكم.. والإذلال والإهانة.. في سورة الدخان " أشد مما في سورة " الحج ".. حيث ختمت صورة العذاب في سورة " الدخان " بقوله تعالى: " ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ (٥٠) "... وختمت في سورة "الحج" بقوله تعالى: وذوقوا عذاب الحريق (٢٢) "

إن إضافة رءوس الكافرين المجرمين إلى ضمير الغيبة سواء أكانوا في الدنيا يحركون تلك الرءوس حركة تكبر واستهزاء ينغضونها سخرية ويلوونها تكبرا ويصعرون خدها استعلاء أم كانوا في الآخرة فسكنت تلك الرءوس وصار ذووها عند ربهم ناكسيها ندما وتحسرا أومقنعيها دهشة وذهولا ثم صاروا بعد أن حكم الله بين العباد في جهنم يصب فوق رءوسهم ومن فوقها الحميم وعذاب الحميم.. أقول: إن اضافة رءوس المجرمين الكافرين إلى ضمير الغيبة في تلك المواضع ليوحي بالإهمال والترك وعدم الالتفات إليهم.

وتأتي رأس خباز الملك ضمن هذه الرءوس؛ لأنه أضمر الغدر فدس السم في طعام الملك ليقتله.. ويبلغ أمره الملك فيأمر بحبسه ويحبس معه صاحب شرابه ظنا منه أنه قد مالأه أي: ساعده وشايعه.[1]

ويدخل الفتيان السجن مع يوسفَ – عليه السلام – ويقص عليه كل منهما رؤيا رآها فيعبر لهما – عليه السلام – ما قصا " يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١) يوسف ".. أضيفت رأس

[1] انظر تفسير الطبري ١٦ / ٩٥

الخباز إلى ضمير الغيبة في قوله تعالى " فتأكل الطير من رأسه " تلمح برءوس المجرمين الكافرين لغدره وخيانته فجزاؤه كجزائهم الأهمل وعدم الالتفات.

ويأتي الموضع الثامن عشر من مواضع استعمالات كلمة الرأس في آيات الذكر الحكيم فنجدها في هذا الموضع قد عرفت بالألف واللام وهو الموضع الوحيد الذي جاءت فيه الرأس معرفة بالألف واللام.. قال تعالى: " كهيعص (١) ذكرُ رحمةِ ربِّكَ عبدهُ زكريا (٢) إذ نادى ربه نداء خفيًا (٣) قالَ ربِّ إني وهن العظمُ منّي واشتعل الرأسُ شيبًا ولم أكن بدعائك ربِّ شقيًا (٤) مريم " وهي وإن كانت معرفة بالألف واللام إلا أنه لا يخفى على القارئ أن المراد رأس زكريا - عليه السلام - ففيها معنى الإضافة، ولذا يقول الإمام عبد القاهر:

" واعلم أن في الآية شيئا آخر من جنس النظم وهو تعريف الراس بالألف واللام وإفادة معنى الإضافة من غير إضافة وهو أحد ما أوجب المزية ولو قيل: " واشتعل رأسي " فصرح بالإضافة لذهب بعض الحسن فاعرفه. "(١)

إنَّ الحسن الكامن وراء **إفادة معنى الإضافة من غير إضافة** والذى يطلب منا عبد القاهر أن **نتأمل لنعرفه مرده إلى نفي الحزن** بظهور الشيب عن زكريا - **عليه السلام - فقد جرت عادة الشعراء أنهم** يحزنون ويبكون عند ظهور **الشيب برءوسهم لأن ذاك الشيب يبعدهم** عن دنيا اللهو والمجون ويؤذن **بفراق الأحبة.. يقول دعبل الخزاعي:**

(١) دلائل الاعجاز: ١٠٢

لا تعجبي يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى

ويقول أبو تمام:

له منظر في العين أبيض ناصع ولكنه في القلب أسود أسفع

ويقول الآخر:

قالت قتيلة ما له قد جللت شيبا شواته

إنّ هؤلاء الشعراء في واد وزكريا – عليه السلام – في واد آخر. إنه فرح بالشيب؛ لأنه يقربه من نعيم ربه، ولذا تصوره شواظا بارقا، وأحس بظهوره إحساسا مشرقا... كما تصور هذه الاستعارة المكنية " واشْتَعَل الرَّأْسُ شَيْبًا " وكأنه – عليه السلام – يتغنى بتلك الآية الكريمة " قال ربِّ إنِّي وهن الْعظْمُ منِّي واشْتَعَل الرَّأْسُ شَيْبًا ".. كأنه يتغنى بها فرحا بظهور الشيب وانتشاره.. فظهوره إشراق.. ومع الإشراق انتشار وإحاطة بكل الشعر كما يوحي بذلك التجوز بإسناد الاشتعال إلى الرأس؛ لأنّ ما اشتعل إنما هو شعر الرأس.. والرأس إنما هي مكان ينبت فيه ما اشتعل.

إنّ هذا المعنى – وهو ابتهاج زكريا، وتقبله للشيب قبولا حسنا، وسروره به – يذهب لو أضيفت الرأس إليه فقيل: " واشتعل رأسي شيبا " لأن تلك الإضافة ستوهم أن هناك حزنا قد اعترى زكريا – عليه السلام – عند ظهور الشيب برأسه فدفعا لهذا التوهم عدل عن الإضافة إلى

التعريف بالألف واللام الذي أبرز زكريا - عليه السلام - فرحا بهذا الشيب مبتهجا باشتعاله فهو نذير من ندر العمر.. ينذر بانتهاء العمر في دنيا الشقاء وقرب الرحيل الى دار الخلد لينعم المؤمن بالنعيم المقيم وليشقى الكافر في العذاب الأليم.. لذا يفرح المؤمن بالشيب لانه يقربه من نعيم ربه ويغتم الكافر به لأنه يدنيه من العذاب المهين.

ولله در القائل:

رأيت الشيب من نذر المنايا ... لصاحبه وحسبك من نذير

وقائلة تخضب يا حبيبي ... وسود شعر شيبك بالعبير

فقلت لها المشيب نذير عمري ... ولست مسودا وجه النذير

وبهذا يتجلى لنا أن تتبع الكلمة القرآنية واستقصاء مواقعها في سياقاتها ميدان رحب وخصب يحتاج إلى جهود الدارسين ومن أخلص النية وشمر عن سواعد الجد فخاض في هذا الميدان متأملا متدبرا مهتديا باشارات المفسرين تكشفت أمامه أسرار وبدت له لطائف بها تنجلي جانب من جوانب إعجاز القرآن الكريم التي لا تنجلي إلا بهذا التتبع.

.....

Scanned by CamScanner

الفتيل والنقير والقطمير

ومن ميدان تتبع كلمة واحدة إلى ميدان تتبع كلمات أخوات فننظر في تلك الأخوات الثلاث " الفتيل والنقير والقطمير " ثلاث كلمات اجتمعت في النواة وتقاربت معانيها اللغوية.. فالفتيل: القشرة التي في شق النواة، وسمي بهذا الاسم "فتيلا" لأنك إذا أردت استخراجه انفتل بين أصابعك.

والنقير: النقرة في ظهر النواة.. قالوا: ومنها تنبت النخلة.. والقطمير: لفافة النواة وهي القشرة الرقيقة الملتفة عليها.. هذه القشرة تلف النواة وتفصل بينها وبين التمرة.

وقد ضربت العرب الألفاظ الثلاثة مثلا للشيء القليل الحقير الذي لا يعتد به ولا يقام له وزن فقالوا: " **ما أغنى عنه فتيلا** " أي: ما أغنى عنه مقدار تلك القشرة التي في شق النواة.. **وقالوا:** " **ما أصبت منه نقيرا** " أي: ما أخذت منه شيئا لا قليلا ولا كثيرا.. **وقالوا:** " **فلان لا يملك قطميرا** " أي: لا يملك شيئا.[1]

وإذا كانت هذه الأخوات الثلاث قد ضربت مثلا لشيء واحد وتقاربت معانيها اللغوية - كما رأينا - فإن كل كلمة منها تنفرد بإيحاءات ولها ظلال ليست لغيرها.. ولذا لا يمكن أن يستبدل بواحدة منها إحدى الأخريين.. المعنى يأبى والسياق يرفض كما سنرى في تتبع مواضع هذه الأخوات.

---

[1] انظر الفتوحات الإلهية ١ / ٣٩٠

Scanned by CamScanner

وردت كلمة " فتيل " في ثلاثة مواضع هي: " ألم تر الى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلا (٤٩) النساء ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله او اشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا (٧٧) النساء... يوم ندعوا كل أناس بإمامهم فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم ولا يظلمون فتيلا (٧١) الإسراء ".

ووردت كلمة " نقير " في موضعين هما: "ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا (٥١) أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا(٥٢) أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرا (٥٣) أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما (٥٤) النساء... والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا وعد الله حقا ومن أصدق من الله قيلا (١٢٢) ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا (١٢٣) ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا (١٢٤) النساء ".

وجاءت كلمة " قطمير " في موضع واحد هو: " يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل

مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير (١٣) فاطر ".

وقد روعي في ورود تلك الكلمات بناء الكلمة فكلمة " فتيل " أخف الكلمات الثلاث ولذا وردت في ثلاثة مواضع وكلمة " نقير " أثقل منها ولذا وردت في موضعين وكلمة " قطمير " أثقلها ولذا جاءت في موضع واحد.

إن كثرة أو قلة ورود الكلمة في القرآن الكريم ترجع إلى أمور وتنبئ بمعان فقد ترجع الكثرة إلى خفة الكلمة، والقلة إلى ثقله،ا كما في تلك الكلمات الثلاث التي بين أيدينا، وقد توحي كثرة استعمال الكلمة بالوفرة وكثرة الوجود، وتوحي قلة استعمالها بالندرة وقلة الوجود.

فكلمة " صديق " لم ترد إلا في موضعين اثنين، وفي كليهما كانت مفردة.. قال تعالى: " لَيْس عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ النور: ٦١ "... وقال تعالى: " مَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) الشعراء ".. ويلاحظ في كلا الموضعين أن كلمة " صديق " قد جاءت مفردة وما صاحبها من كلمات قد جاء جمعا.. " آبائكم.. أمهاتكم.. إخوانكم.. أخواتكم... أعمامكم.. عماتكم.. أخوالكم.. خالاتكم.. شافعين ".

Scanned by CamScanner

لقد سئل أحد الحكماء عن الصديق فقال: " اسم لا معنى له يقصد أنه لا وجود له في عالم الناس أي: يعز وجوده.

ويعلل الزمخشري رحمه الله مجيء كلمة صديق في الذكر الكريم مفردة وفي موضعين اثنين بأن الصديق وهو الصادق في وداده الذي يهمه ما أهمك أعز من بيض الأنوق.(١)

ان الأنوق نوع من الطير موصوف بالغدر ويسمى ايضا الرخم.. بفتح الراء المشددة وفتح الخاء مفرده: رخمة.. بفتح الراء والخاء وقد عز بيضها لأنه لا يظفر به إذ أوكارها تكون في رءوس الجبال وفي الأماكن الصعبة.. ويضرب هذا القول: أعز من بيض الأنوق مثلا لما يعز وجوده.. قال الأخطل:

من الجاريات الحور مطلب سرها كبيض الأنوق المستكنة في الوكر(٢)

هذا وكل كلمة من هذه الكلمات الثلاث لها - كما قلت - ظلال ولها ايحاءات بها جاءت منسجمة في سياقها متلائمة مع ما ساد في ذلك السياق ففي مواضع " الفتيل " الثلاثة قد ساد القول.. قول هؤلاء الذين يزكون أنفسهم إذ التزكية تكون باللسان والقول " ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلا "... وقول هؤلاء الذين كتب عليهم القتال فلما كتب عليهم القتال " إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب "... وقراءة أولئك الذين أوتوا كتبهم

---

(١) انظر الكشاف ٣ / ١١٩

(٢) انظر مجمع الأمثال ٢ / ٣٩٠.. ولسان العرب مادة: رخم.

بإيمانهم والقراءة قول "فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم ولا يظلمون فتيلا".

ساد القول في مواضع الفتيل الثلاثة وانسجم "فتيلا" مع القول الذي ساد في سياقه لأن بين الفتل والقول صلات ووشائج فقد ضربت العرب المثل للرجل يحتال على صاحبه بالقول حتى يستجيب له منصرفا عن رأيه الذي كان يتمسك به.. ضربوا المثل لذلك بقولهم: "ما زال يفتل له في الذروة والغارب حتى لان وخضع".(١)

فالذروة: سنام البعير.. والغارب: عنقه.. ضرب الفتل فيهما مثلا لمن يحتال ويخادع ويظل وراء صاحبه يزين له القول ويزخرفه حتى يستجيب له منصرفا عن رأيه الذي كان يتمسك به.. ولذا جاءت كلمة "فتيلا" منسجمة متآلفة مع القول الذي ساد في سياقاتها.

وكذا تأتي كلمة "نقير" في موضعيها منسجمة متآخية مع ما ساد في سياقها ففي موضعها الأول برزت في السياق صفات متأصلة في نفوس اليهود وهي البخل والحسد والجهل في الاعتقاد "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (٥٢) أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا (٥٤) النساء" **لقد جاءت كلمة "نقير" متآخية متآلفة منسجمة مع تلك الصفات لأن**

(١) انظر مجمع الأمثال ٢ / ٤٣٦.. ولسان العرب مادة: فتل

النقير: هو النقرة في ظهر النواة، وتلك النقرة باقية وثابتة ثبوت الجهل والحسد والبخل في نفوس اليهود.. كما أن النقر يبدو أثره في الأشياء المنقورة ويثبت بها ويبقى بقاء تلك الصفات المتأصلة في نفوس اليهود.

وفي موضعها الثاني ساد السياق العمل بعد الإيمان الذي استقر في القلب.. " وَالَّذِينَ آمَنُوا وعملُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا (١٢٢) لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (١٢٤) النساء ".. والإيمان ثابت بالقلب والعمل له أثر يبقى ويتطلب من العامل جهدا.. وكذا النقير أثر باق في ظهر النواة.. ومن معانيه ضرب الحجر ونحوه بالمنقار وهي آلة كالفأس تقطع بها الحجارة.. ومن معانيه أيضا منقار الطائر الذي ينقر به **والنقر يتطلب جهدا من الناقر** كما تطلب العمل جهدا من العامل.. فبين " **النقير والإيمان العمل** " وشائج وصلات.. وترابط وتآخ.. ولذا تآلف **النقير مع الإيمان والعمل اللذين** سادا سياقه.

وكذا كلمة " قطمير " تأتي **في موضعها متآلفة مع ما تجلى في** السياق فقد تجلى في سياقها من سورة " **فاطر** " **كمال علم الله وكمال** قدرته ونفاذ إرادته وعظم سلطانه.. **وبرزت فيه الأدلة على ذلك في** الآفاق وفى الأنفس فمن دلائل الآفاق **فطر السموات والأرض وجعل** الملائكة رسلا أولى أجنحة **وإرسال الرياح وإثارتها السحاب وسوقه إلى**

البلد الميت وإحياء الأرض به .. ويستمر السورة الكريمة في عرض الأدلة في الآفاق وفي الأنفس .. تلك الأدلة التي تدل على كمال قدرة الله وكمال علمه ونفاذ إرادته وعظم سلطانه .. وفي ضوء هذا السياق يأتي إثبات عجز تلك الآلهة التي تعبد من دون الله عن طريق نفي ملكها قطميرا وإذا كانت لا تملك قطميرا فكيف تعبد من دون الله تعالى الخالق القادر المهيمن ؟ .. "يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير (١٣) فاطر .. ونجد هنا القطمير منسجما ومتآلفا مع ما تجلى في السياق. فإحاطة القطمير بالنواة توحي بكمال قدرة الله تعالى، وأنه جل في علاه قد أحاط بكل شيء علما "الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما (١٢) الطلاق .. كما أن من مادة القطمير - القاف والطاء والميم - ما يدل على العظمة والضخامة فمن مادته " القطامي " وهو الصقر.. و قطمان اسم جبل.. و"المقطم" وهو جبل معروف بمصر يقع شرقي القاهرة.. وتلك المعاني تعد ظلالا للفظ " قطمير ".. وبهذا يتضح لنا أن القطمير بمعناه وبإيحاءاته ينسجم ويتآلف مع صفات الله - تبارك وتعالى - التي برزت وتجلت في سياق السورة الكريمة. وهكذا يتجلى لنا مدى انسجام كل لفظ من هذه الألفاظ الثلاثة في سياقه وتآخيه وتآلفه مع ما برز وساد في السياق.. **ولو حاولنا أن نستبدل بلفظ منها أحد أخويه وجدنا قلقا واضطرابا ورفضا من السياق وإباء من المعنى.. فسبحان من هذا كلامه.**

Scanned by CamScanner

السنة والعام والحول والحجة

ونُنعم النظر مرة أخرى في أخوات اخر هي السنة واخوتها العام والحول والحجة.. فهذه الأخوات يجمعها معنى واحد هو الدلالة على اثنى عشر شهرا أمد تمام دورة الشمس وأمد تمام اثنتي عشرة دورة للقمر ثم تستقل كل كلمة منها بمعنى خاص لا يوجد في أخواتها تنفرد هي بالدلالة عليه.. ويرجع هذا المعنى الخاص الذي تنفرد كل كلمة بالدلالة عليه إلى اشتقاقات تلك الكلمات الأربع.

فالسنة أصلها: سنوة أو سنهة بسكون النون، حذفت لام الكلمة وهي الواو أو الهاء، ونقلت حركتها إلى النون الساكنة، فصارت سنة .. ومن اشتقاقاتها أيضا: سنت وأسنت.. يقال: سنهت النخلة.. إذا أتى عليها السنون.. وأسنى القوم.. إذا أقاموا سنة في موضع.. واسنت القوم فهم مسنتون.. إذا أصابهم القحط والجدب.. قال ابن الزبعرى:

عمرو العلا هشم الثريد لقومه
ورجال مكة مسنتون عجاف

وهذا المعنى الذي يفيده الاشتقاق الثالث " سنت وأسنت " غلب على استعمال السنة مطلقة يقال: " أصابتهم السنة " إذا أجدبوا.. يعنون السنة المجدبة.. قال تعالى: " ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون (١٣٠) الأعراف ".. وفي الحديث " اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف "[1].. وفي الحديث

[1] رواه البخاري في الأذان رقم: ٨٠٤

أيضا " إذا سافرتم في الخصب فأعطوا الإبل حظها من الأرض وإذا سافرتم في السنة فبادروا بها نقيها "(١)

وبتتبع مواضع " السنة " في آيات الذكر الحكيم وقد وردت في تسعة عشر موضعا تبين لنا أنها قد استعملت في معاني الشدة والقحط والجدب حيث روعي فيها الاشتقاق الثالث " الإسنات "... كما استعملت في معاني الكد والتعب والشقاء حيث روعي الاشتقاقان الآخران وما يفيدانه من الدوران الموحي بالتعب والكد والشقاء.

يتجلى لنا ذلك عند إنعام النظر في مواضع السنة التسعة عشر وهي: "ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون (٩٦) البقرة... قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين (٢٦) المائدة... ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون (١٣٠) الأعراف... هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون (٥) يونس... وقال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين (٤٢) يوسف... قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلا مما

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده رقم: ٨٩١٨.. والنقي بكسر النون المشددة وسكون القاف: مخ العظام.. والمراد أسرعوا عليها السير ما دامت قوية قبل أن تضعف.

Scanned by CamScanner

تأكلون (٤٧) ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إ
فيه يعصرون (٤٨) يوسف... وجعلنا الليل والنهار اثنين فمحونا
آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عد
السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا (١٢) الإسراء... فضربنا
على آذانهم في الكهف سنين عددا (١١) الكهف... ولبثوا في كهفهم
ثلاث مئة سنين وازدادوا تسعا (٢٥) الكهف... فلبثت سنين في أهل
مدين ثم جئت على قدر يا موسى (٤٠) طه... ويستعجلونك بالعذاب ولن
يخلف الله وعده وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون (٤٧)
الحج... قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين (١١٢) قالوا لبثنا يوما أو
بعض يوم فاسأل العادين (١١٣) المؤمنون... قال ألم نربك فينا وليدا
ولبثت فينا من عمرك سنين (١٨) وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من
الكافرين (١٩) الشعراء... أفرأيت إن متعناهم سنين (٢٠٥) ثم جاءهم
ما كانوا يوعدون (٢٠٦) ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون (٢٠٧)
الشعراء... ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين
عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون (١٤) العنكبوت... الم (١) غلبت
الروم (٢) في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون (٣) في بضع
سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون (٤) بنصر الله
ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم (٥) الروم... يدبر الأمر من السماء
إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون (٥)
السجدة... ووصينا الانسان بوالديه إحسانا حملته أمه كرها ووضعته
كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة
قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن

أعمل صالحا ترضاهُ وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين (١٥) الأحقاف... سأل سائل بعذاب واقع (١) للكافرين ليس له دافع (٢) من الله ذي المعارج (٣) تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقدارهُ خمسين ألف سنة (٤) فاصبر صبرا جميلا (٥) المعارج.

ولا يخفى على الدارس المتأني والناظر المتدبر والباحث المتأمل ما يكمن وراء التعبير بلفظ " سنة.. وسنين.. والسنين " في تلك المواضع من معاني الجدب والقحط والتعب والشقاء.. قد يخفى ذلك على صاحب النظرة الحمقاء أو صاحب النظرة العاجلة ولكن بالتأني ومراجعة السياق تتضح هذه المعاني وتتجلى.[1]

و " العام " تدور مادته حول السباحة والمهارة في العوم والسرعة مع اللين في السير.. يقال: عام الرجل أي: سبح في الماء.. ورجل عوام أي: ماهر بالسباحة.. وعامت السفينة: انطلقت وسارت في الماء.. وعامت الإبل في البيداء: أسرعت واشتد سيرها.

ومن هنا ونظرا لهذه الاشتقاقات خص " العام " دون أخواته " السنة والحول والحجة " بالاستعمال فيما يدل على السعة والامتداد والخصب والنماء وكثرة الخير ورغد العيش.. فالعام يستعمل في ضد ما تستعمل فيه السنة.. المعنى الخاص الذي يستعمل فيه العام وينفرد بأدائه يقابل المعنى الخاص الذي تستعمل فيه السنة وتنفرد بأدائه.. فهما

[1] ارجع إلى كتابنا: من روافد نهر الإعجاز البلاغي: ١٥٦ وما بعدها.

Scanned by CamScanner

وإن التقيا في معنى عام يجمعهما إلا أن بينهما تضادا من حيث المعنى الخاص الذي ينفرد به كل منهما.

يتجلى لنا ذلك عند النظر في المواضع التي استعمل فيها لفظ العام في آيات الذكر الحكيم وقد استعمل في سبعة مواضع هي: او كالذي مرّ على قرية وهي خاوية على عُرُوشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مئة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما او بعض يوم قال بل لبثت مئة عام البقرة:٢٥٩... يا أيها الذين آمنوا انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا التوبة:٢٨... إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدي القوم الكافرين (٣٧) التوبة... أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون (١٢٦) التوبة... ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون (٤٩) يوسف... ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون (١٤) العنكبوت... ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير (١٤) لقمان ".

جاء العام " في هذه المواضع السبعة.. وفي موضعين منها قد كرر اللفظ - كما رأينا -.. وبتدبر تلك المواضع نجد لفظ " العام " فيها موحيا بالخير والنماء.. والأمن والطمأنينة.. والسعادة والاستقرار.. فنوح - عليه السلام - لبث في قومه تسعمائة وخمسين سنة.. ألف سنة إلا خمسين.. يعاني من كفرهم وإعراضهم فكانت سنين.. ثم يأخذهم

الطوفان ويمكث نوح - عليه السلام - في صحبة من آمن معه خمسين عاما بعد الطوفان في أمن واطمئنان.. يوحي بذلك لفظ العام.

وانباج الملك ظلوا في عمل شاق سبع سنين يزرعون دابا.. ثم في جدب وقحط سبع سنين أخرى أتت على ما اختزنوه في سنبله.. ثم أتى الخير والخصب والنماء فلاءم ذلك التعبير بلفظ العام.. "عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون".

والتعبير بلفظ "العام" في سورة "التوبة" يشعر بأن المشركين والمنافقين والكافرين كانوا في رخاء ورغد من العيش وهم مع ذلك يفتنون مرة أو مرتين "في كل عام".. ويضلون بالنسيء فيحلونه عاما ويحرمونه "عاما".. ويصرون على كفرهم ونجسهم الذي ينبغي أن ينزه عنه المسجد الحرام فلا يقربوه بعد "عامهم" هذا.

وأهل الكهف ضرب الله على آذانهم، فلبثوا في كهفهم ثلاثمائة. وازدادوا تسعا ثم بعثهم.. وذاك الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها فقال: أنى يحيي هذه الله بعد موتها ؟ أماته الله مائة ثم بعثه.. ما لبثه أهل الكهف كان سنين حيث ضرب على آذانهم وهم خائفون وبعثوا وهم خائفون.. فالسنون تتآلف مع ذلك الخوف.. ولا نجد هذا الخوف عند المار على القرية لا عند إماتته ولا عند بعثه.. ثم إن أصحاب الكهف بعثوا ليموتوا.. والمار على القرية بعث ليحيا.. فتلاءمت سنين "مع أصحاب الكهف وتلاءم العام مع المار على القرية.[1]

---

[1] انظر نظم الدرر ٤ / ٥٦

وسياق الوصية بالوالدين في سوره لقمان يبني باستمرار الوالدين وتحقق السكن والمودة والرحمة وهي الغاية من الزواج بينهما، ولذا عبر عن مدة الفصال بالعامين.. "وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلى المصير".. وقد عبر عنها في سوره البقرة بالحولين حيث اختلف السياق كما سنرى الان.

فـ الحول تدور مادته حول: التغير والتحول.. وتأكيد مرور اثنى عشر شهرا كاملة غير منقوصة.. والحيلة بمعنى القوة والقدرة على تصريف الأمور بحذق ودقة.. هذه المعاني الثلاثة تدور حولها اشتقاقات الحول.. يقال: حال عليه الحول أي: مر عليه اثنا عشر شهرا كاملة ومنه وجوب زكاة المال إذا حال عليها الحول.. ويقولون: أحالت الدار واحولت وأحال الغلام ودار مُحيلة تأكيدا لمرور اثني عشر شهرا كاملة عليها ومشاهدة التغير عند ذاك على الدار وعلى الغلام.. ويقولون: رجل حُول - بضم الحاء وفتح الواو المشددة - أي: ذو حيلة وبصيرة بتحويل الأمور وكذا امرأة **حُولة - بالضبط المذكور -**.. ويقولون: هو أحول منك أي: **أكثر حيلة.. ويكنون عن شدة احتيال** الرجل بقولهم: هو احول من ذئب.. **ومن ذلك "لا حول ولا قوة إلا بالله"** أي: لا حيلة ولا قدرة للإنسان على **تصريف الأمورِ إلا بقوة الله وإرادته.**

وقد جاء لفظ "الحول" في **آيات الذكر الحكيم في موضعين اثنين** هما: **والوالداتُ يرضعن أولادهنّ حولَيْن كاملَيْن لمنْ أراد أنْ يُتمّ** الرضاعة وعلى المولود له **رزقُهنّ وكسوتُهنّ بالمعْروف لا تُكلّفُ نفسٌ** إلا وسعها لا تضارّ والدة بولدها **ولا مولودٌ لهُ بولده وعلى الوارث مثلُ** ذلك فإن أرادا فصالا عن تراض **منهما وتشاور فلا جُناح عليهما وإنْ**

أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير (٢٣٣) البقرة... والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول غير إخراج فإن خرجن فلا جناح عليكم في ما فعلن في أنفسهن من معروف والله عزيز حكيم (٢٤٠).

والراجح من آراء العلماء أن المراد بالوالدات في الآية الأولى المطلقات لأمور هي:

١- أن الآية الكريمة قد ذكرت عقب آيات الطلاق فكانت من تتمتها

٢- أن إيجاب الرزق والكسوة للمرضعات بقوله تعالى: وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ... يقتضي تخصيصهن بالمطلقات إذ لو كانت الزوجة باقية لوجب ذلك لها على الزوج بسبب الزوجية لا الرضاع. (١)

٣- أن السياق في الآية الكريمة قد دل على تباعد الزوجين وأبرز التنافر وعدم التلاقي إذ اهتم بالكشف عن واجبات كل منهما ولا نجد هنا الألفة والمودة التي رأيناها في سورة لقمان.

٤- التعبير بلفظ حولين " فقد جاء بمعانيه الخاصة التي انفرد بالدلالة عليها منسجما في هذا السياق منبها إلى ضرورة

(١) انظر الكشاف ١ / ٣٧١... وتفسير الفخر الرازي ٦ / ١٢٦.. وروح المعاني ٢ / ١٤٥... وتفسير القرطبي ٣ / ١٠٦

إتمام مدة الرضاع أربعة وعشرين شهرا كاملة وذلك حر
تتفلت المرضعة وتحاول أن تختصر المدة.. ومع ذل
الحولين على إتمام مدة الرضاع فقد أكد بقوله تعالى كامل
.. وفي معنى الحول أيضا إشعار بضرورة أن تتحلى الوال
المرضعة بالصبر مستعينة بقدرة الله تعالى الذي لا حول ولا
قوة إلا به.

وكذا الراجح من آراء العلماء في الآية الثانية أنها لا تدل عل
ان عدة المتوفى عنها زوجها كانت حولا ثم نسخت بقوله تعالى:
والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر
وعشرا فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن
بالمعروف والله بما تعملون خبير (٢٣٤) البقرة .. وإنما دلت على ان
ذلك من باب الوصية لهن أن يمكن من السكنى في بيوت أزواجهن حولا
كاملا إن اخترن ذلك فلا يمنعن: " وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول غير
اخراج .. وكذا لا يمنعن من الخروج إذا انقضت عدتهن بوضع الحمل
او بانقضاء أربعة أشهر وعشر وأردن الخروج والتزين وترك الحداد:
فان خرجن فلا جناح عليكم في ما فعلن في أنفسهن من معروف .. هذا
الراي – كما يقول ابن كثير – يرجحه السياق وله وجاهته.(١)

ويأتي لفظ الحول في هذا السياق ليحث على تنفيذ الوصية.
وموحيا بوجوب إتمام مدة الوصية اثني عشر شهرا كاملة.. فالمتوفى
عنها زوجها عليها أن تستعين بحول الله وقوته على إتمام المدة دون

(١) انظر تفسير ابن كثير ١ / ٢٩٧.. وتفسير ابي السعود ١ / ٢٣٧

خروج وكذا على أولياء المتوفى أن يستعينوا بحول الله وقوته وان يكون لديهم من الحيلة ما يمكنهم من مساعدة الزوجة على تحقيق الوصية.

و" الحجة " وجمعها " حجج " بكسر الحاء.. تدور معانيها حول: الموسم.. والطرق المحفرة.. والصياح.. وزجر الغنم.. يقولون: " فلان يأتي في كل حجة " أي: في كل موسم.. والحُجَج: الطرق المحفرة.. وحجج بكسر الأول والثاني وسكون الثالث: اسم فعل لزجر الغنم.. وحجج عن الشيء كف عنه.. وحجج وتحجج: صاح.. وكبش حججٌ بفتح فسكون ففتح أي: عظيم ضخم.. ويقولون: "تحجج القوم بالمكان" أي: أقاموا به فلم يبرحوه.(١)

ويلاحظ في هذه الاشتقاقات معاني الصياح والغلبة والضجيج الناجمة عن تجمع الحجيج وعن الإقامة بالمكان وعن الصياح بالغنم وزجرها وقد روعي هذا المعنى الأخير في التعبير بكلمة " حجج " في آيات الذكر الحكيم حيث جاءت في موضع واحد رأيناها فيه متآخية مع السياق متآلفة مع المعنى الذي فاض به.

قال تعالى: " قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتيّ هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين (٢٧) القصص ".. لقد جاءت

(١) راجع هذه الاشتقاقات في لسان العرب وأساس البلاغة في المواد: سنو.. سنه.. وسنت.. عوم.. حول.. حجج.. سنوة

كلمة "حجج" منسجمة في هذا السياق الذي برز فيه الحديث عن السفر والذود.. والحوار بشأن الإجارة والرعي.

وبهذا يتجلى لنا أن كل كلمة من هذه الأخوات قد جاءت مستقرة في سياقها متآلفة مع المعنى الذي يفيض فيه.. وأن ذلك يرجع إلى المعاني الخاصة التي انفردت بالدلالة عليها كل كلمة من تلك الأخوات. ولو أردنا أن ننتزع كلمة منها من سياقها لنستبدل بها إحدى أخواتها رأينا خللا وقلقا واختلافا واضطرابا، ورفضا من السياق وإباء.. لا يتأتى أن نضع هنا في سورة " القصص ": سنين مكان حجج في قوله تعالى على أنْ تأجرني ثماني حجج".. ولا أن نضع في سورة "لقمان": حولين مكان عامين في قوله تعالى " وفصالُهُ في عامين ".. ولا أن نضع في سورة " المائدة ": عاما مكان سنة في قوله تعالى " أربعين سنة يتيهون في الأرض ".. ولا أن نضع في سورة " الأعراف " الأعوام مكان السنين في قوله تعالى: " ولقدْ أخذْنا آلَ فرْعونَ بالسّنين ونقْص من الثّمرات .. نرى خللا – كما قلت – والسياق يأبى.

ونختتم حديثنا عن تلك الأخوات ببيان سبب التفاوت في ورود تلك الأخوات في النظم الكريم.. **السنة جاءت في تسعة عشر موضعا، والعام في سبعة مواضع، والحول في موضعين، والحجة في موضع واحد.. هل يوجد من سبب لهذا التفاوت؟.**

أرى – والله أعلم بمراده – **أنّ السنة بما تحمله من معاني الجدب والقحط وسوء الزمان.. والتعب والكد والشقاء.. قد كثرت في آيات الذكر الحكيم للدلالة على أن متاع الدنيا قليل وما فيها من زخرف**

Scanned by CamScanner

زوال. والدلالة على أن الشر والفساد فيها كثير.. وأن
فيها كادح ومكابد خلق لهذا، وسيلقى جزاءه في الدار الباقية
قال تعالى: قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى و
ظلما (٧٧) النساء. وقال تعالى: ظهر الفساد في البر
بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون
(٤١) الروم. وقال عز قائلا: يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك
فملاقيه (٦) الانشقاق... لقد خلقنا الإنسان في كبد (٤) البلد..
وقال تعالى: بل تؤثرون الحياة الدنيا (١٦) والآخرة خير وأبقى (١٧)
الأعلى.

وإن العام بما يحمله من معاني الخصب والنماء.. والخير ورغد
العيش قد قل وروده في النظم الكريم للدلالة - كما قلنا - على أن
متاع الدنيا قليل.. وأن ما فيها من زخرف وزينة فإلى زوال.. وأن
الإنسان لم يخلق ليقبل على متاعها القليل وزخرفها الزائل.. وإنما خلق
ليعمل للدار الآخرة كي يفوز بنعيمها المقيم.

قال تعالى: "وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون
وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون (١٠٥)
التوبة.. وقال تعالى "يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم
فيها نعيم مقيم (٢١) التوبة".

ومن أجل ذلك رغب عنها النبي - صلى الله عليه وسلم - وزهد فيها وزهد أصحابه وحذر من زهرتها.. فقد ورد أنه - عليه الصلاة والسلام - نام ذات يوم على حصير، فلما استيقظ ورأى الصحابة -

Scanned by CamScanner

رضي الله عنهم - أثر الحصير في جنبه الشريف قالوا: يا رسول الله ه
اتخذنا لك وطاء أي: فراشا ناعما فقال - صلى الله عليه وسلم -: ما
لي وللدنيا ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل في ظل شجرة ثم راح
وتركها ".(١)

وعندما مرّ - صلى الله عليه وسلم - ومعه أصحابه - رضي
الله عنهم - على جدي أسك - أي: مقطوع الأذن - ميت.. رفعه -
عليه الصلاة والسلام - حتى رآه الصحابة ثم قال لهم: " أيكم يحب أن
يكون له هذا بدرهم ؟ " فسكتوا.. قال: " أيكم يحب أن يكون له هذا ؟
أي: بلا درهم.. بلا مقابل.. قالوا: ما نحب أن يكون لنا إنه أسك فكيف
وهو ميت ؟ فقال - صلى الله عليه وسلم -: " والذي نفسي بيده للدنيا
أهون على الله تعالى من هذا عليكم ".(٢)

وبهذا يتبين لنا أن كثرة ورود " السنة " في آيات الذكر الحكيم
توحي بأن هذه الدنيا حياة كد وشقاء وكدح ومكابدة وأن الشر فيها كثير
والفساد عريض.. وقلة ورود " العام " توحي بقلة الخير في هذه الدنيا
وأن متاعها قليل وزخرفها وزينتها إلى زوال إذ الترف والخير والنعيم
المقيم إنما هو في الدار الباقية.

وأما " الحول " فقد جاء في موضعين اثنين ليؤذن ذلك
عمر الإنسان إذ من معاني الحول الخاصة التي انفرد بها:
اثني عشر شهرا كاملة غير منقوصة.. فقلة وروده توحي بق

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده: ٤٠٦٥
(٢) رواه مسلم: ٢٩٥٧ والبخاري: ٩٦٢ وأحمد: ١٤٩٧٢ وأبو داو

الإنسان وتنبئ بأنه لن يخلد أحد في هذه الدنيا.. يقول - صلى الله عليه وسلم -: " أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين وأقلهم من يجوز ذلك "(١).. وقال تبارك وتعالى: " وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون (٣٤) الأنبياء ".

ويوم القيامة يقر الكافرون بقصر أعمارهم في الدنيا، وأنهم ما لبثوا فيها إلا يوما أو بعض يوم.. قال تعالى: " قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين (١١٢) قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين (١١٣) قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون (١١٤) المؤمنون ".

وتأتي " الحجة " في موضع واحد، ومن معانيها الخاصة التي انفردت بها: الدلالة على الصياح وزجر الغنم.. وهذا يشعر بإقبال الناس على متاع الدنيا وزخرفها ويدل على أن من يزهد فيها ويرغب عنها راضيا منها بغنيمة يرعاها في رأس شعفة أو في بطن واد لقليل.. إن مجيء " الحجة " في موضع واحد يومئ إلى قلة هؤلاء الذين يرضون من الدنيا بغنيمة يرعونها ويعبدون ربهم حتى يأتيهم اليقين.. وقد أخبر - صلى الله عليه وسلم - أن هؤلاء هم خير الناس وأنهم ليسوا من الناس إلا في خير.. يقول - عليه الصلاة والسلام -: « من خير معاش الناس لهم رجل ممسك عنان فرسه في سبيل الله يطير على متنه كلما سمع هيعة أو فزعة طار عليه يبتغي القتل والموت مظانه، أو رجل في غنيمة في رأس شعفة من هذه الشعف أو بطن واد من هذه الأودية

(١) رواه ابن ماجة في الزهد: ٤٢٣٦

يقيمُ الصلاة ويؤتى الزكاة، ويعبدُ ربه حتى يأتيه اليقين ليس من ورا
إلا فى خير ».[1]

اللهم اجعلنا من هؤلاء.. الزاهدين فى زهرة الدنيا وزينتها
راضين منها بالقليل.. الراغبين فيما أعددته لعبادك المتقين فى
الباقية.. اللهم آمين

.....

[1] رواه مسلم في الإمارة: ١٢٥ / ١٨٨٩

Scanned by CamScanner

من أسرار السمو في صارع التصوير

تنوع صارع التصوير في آيات الذكر الحكيم. ويرجع هذا التنوع
ير السياق الذي يرد فيه التصوير. فترى الصورة وقد جاءت صارعها
سياقه مع السياق مناسبة مع المعنى الذي بدا فيه بحيث إذا أردت
تبدل صارع الصورة بصارع أخرى جاءت في سياق آخر لنفس
ت فيما يلي:

تصوير الجبال

جعل الله - عز وجل - الجبال رواسي شامخات واوتادا تثبت
لأرض أن تميد بالخلائق.. قال تعالى: ألم نجعل الأرض كفاتا (٢٥)
أحياء وأمواتا (٢٦) وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماء فراتا
(٢٧) المرسلات... ألم نجعل الأرض مهادا (٦) والجبال أوتادا (٧)
نسا.. وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم
تهتدون (١٥) النحل.

هذه صورة الجبال في الحياة الدنيا.. وتلك وظيفتها.. فإذا ما
نتهت الدنيا.. وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة (١٤) الحاقة
رأينا الجبال وقد صارت كثيبا مهيلا ثم عهنا وعهنا منفوشا ثم هباء
سبثا ثم سرابا.. وكل صورة من هذه الصور تنسجم في سياقها الذي
وردت فيه وتتآلف مع المعنى الذي بدا في ذلك السياق.

ففي الصورة الأولى: "يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال
كثيبا مهيلا (١٤) المزمل".. صورت الجبال بالكثبان المهيلة وقد

انسجمت تلك الصورة مع رجف الأرض ودكها هى والجبال إذ يحونها الرجف والدك من الصلابة والقوة إلى تلك الكثبان المهيلة.

وتأتي الصورة الثانية فنرى الجبال فيها عهنا " يوم تكون السَماءُ كالْمُهْلِ (٨) وتَكُونُ الْجبالُ كالعِهْنِ (٩) المعارج .. وعهنا منفوشا " يوْمَ يكُونُ النَاسُ كالْفراش الْمبْثُوث (٤) وتَكُونُ الجبال كالْعِهْنِ الْمنْفُوش (٥) القارعة " والعهن: هو الصوف المصبوغ الوانا ويرجع ذلك إلى ألوان الجبال " ألمْ تر أنَ اللّه أنْزل من السَماء ماء فأخْرجْنا بهِ ثمرات مُخْتلفًا ألْوانُها ومن الْجبال جُددٌ بيضٌ وحُمْرٌ مُخْتلف ألْوانُها وغرابيبُ سُودٌ (٢٧) فاطر ".. وقد صارت الجبال في هذه الصورة متلائمة مع اليوم الذي يقع فيه العذاب وهو يوم مقداره خمسون ألف سنة.. يوم القارعة.

ومما يلاحظ أن التشبيه لم يقيد في سورة " المعارج " ليتلاءم مع تشبيه السماء بالمهل وقيد في سورة " القارعة " ليتلاءم مع تشبيه الناس بالفراش المبثوث ومع الوصف الذي وصفت به القيامة وهو القارعة إذ القرع هو الضرب بشدة وهذا يلائمه القيدان المذكوران. ونرى الجبال في الصورة الثالثة قد صارت هباء منبثا " إذا رُجَتِ الْأَرْضُ رجًا (٤) وبُسَتِ الْجبالُ بسًّا (٥) فَكَانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا (٦) الواقعة" والهباء هو تلك الذرات التي لا ترى إلا في الضوء المنبعث من أشعة الشمس وذاك شيء أضعف وأبعد من العهن المنفوش.. فالصورة هنا تتلاءم مع الوصف المذكور للقيامة وهو " الواقعة " حيث حقق الوقوع وأخبر عما يكون عندئذ من خفض ورفع، وأكد رج الأرض وبس الجبال بالمصدر " رجت الأرض رجا وبست الجبال بسا ". ثم نراها في الصورة الرابعة وقد

صارت سرابا " إنّ يوْم الفصْل كان ميقاتا (١٧) يوم يُنفخ فى الصّور فتأتون أفواجا (١٨) وفتحت السّماءُ فكانتْ أبوابا (١٩) وسيّرت الجبال فكانتْ سرابا (٢٠) النبأ " وتلك الصورة أبعد من كل الصور السابقة؛ لأن الكثيب المهيل والعهن المنفوش والهباء المنبث.. هذه الصور مما يشاهد ويرى مهما كانت ضعيفة أو بعيدة أما السراب فهو لا شيء.. يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا.

والمنزع هنا يتلاءم مع سياقه ويتآلف حيث صرح بيوم الفصل وبالنفخة الثانية وإتيان الناس أفواجا للحساب.. ثم صرح بعد ذلك بجهنم التي تنتظر الطغاة.. وبالفوز وحدائق الأعناب التي هيئت للمتقين.. إنّ جهنّم كانتْ مرْصادا (٢١) للطّاغين مآبا (٢٢) لابثين فيها أحقابا.... إنّ للمتّقين مفازا (٣١) حدائق وأعْنابا (٣٢) وكواعب أتْرابا (٣٣) وكأسا دهاقا (٣٤) النبأ ".

وهكذا تتجلى لنا أحوال الجبال عند انتهاء الدنيا وفي يوم القيامة ويوم يقوم الناس لرب العالمين.. لقد صورت الجبال في كل حال من تلك الأحوال وجاءت كل صورة متآلفة مع الحال التي تصورها ومتسقة مع السياق الذي سيقت فيه.(١)

تصوير خروج النّاس من الأجداث

" الجراد المنتشر.. والإيفاض إلى النصب.. والفراش المبثوث ".. تلك منازع التصوير لأحوال الناس عند خروجهم من الأجداث.. " فتولّ عنْهُمْ يوْم يدْعُ الدّاعِ إلى شيْءٍ نُكُرٍ (٦) خُشّعا أبْصارُهُمْ يخْرُجُون من الْأجْداث

(١) انظر تفسير الفخر الرازي ٣١ / ١٢ - ١٣

كأنهم جرادٌ منتشرٌ (٧) مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر
(٨) القمر... فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون
(٤٢) يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون (٤٣)
خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون (٤٤)
المعارج... يوم يكون الناس كالفراش المبثوث (٤) القارعة

وبتأمل هذه المنازع نجدها في سورة " القمر" مصورة حال الناس عند سماعهم الداعي فيخرجون من قبورهم مهطعين إلى الداعي وقد ادركوا فظاعة وهول ما يدعو إليه.. يخرجون كأنهم جراد منتشر في الكثرة والتدافع والتداخل.. ينتشرون على غير هدى ويندفعون على غير نظام.. يموج بعضهم في بعض وقد خشعت أبصارهم لشدة ما دعا إليه الداعي وهوله وفظاعته.

الصورة هنا فيها قوة وصلابة يشعر بها المنزع فالجراد عند انتشاره ترى به قوة لا ترى في الفراش ومع القوة تخبط وتداخل وتدافع وتلك الصورة تتلاءم مع المعنى ومع السياق إنها صورة الناس عند بداية خروجهم من الأجداث حيث دعا الداع.. وافتتاح السورة الكريمة " اقتربت الساعة وانشق القمر (١) القمر ".. يدل على ذلك فقد اقتربت الساعة ثم دعا الداع فخرج الناس من الأجداث وتلك صورتهم عند بداية الخروج. كما يتلاءم منزع الصورة مع منازع الصور الأخرى في السورة الكريمة.. منزع تصوير مصارع عاد قوم هود " إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر (١٩) تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر (٢٠) القمر "... تلك صورة مصارعهم عند بداية إرسال الريح عليهم " أعجاز نخل منقعر " ما زالت به قوة وصلابة

فلما استمرت بهم الريح سبع ليال وثمانية أيام متصلة تغير المنزع وإما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية (٦) سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية (٧) فهل ترى لهم من باقية (٨) الحاقة ".. صار المنزع هنا " أعجاز نخل خاوية " فلا قوة ولا صلابة وذا يتلاءم مع "سبع ليال وثمانية أيام حسوما .. كما يتلاءم مع أوصاف الشدة التي بدت في السورة الكريمة: الحاقة.. بالقارعة.. عاتية.. أخذة رابية.. طغى الماء.. نفخة واحدة.. دكة واحدة.. ".

وكذا منزع تصوير مصارع ثمود قوم صالح " إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر (٣١) القمر "... المنزع هنا هشيم المحتظر " وهو ما تساقط من يابس الشجر فداسته الدواب وراثت عليه وهو أقوى من العصف المأكول منزع تصوير مصارع أصحاب الفيل في قوله تعالى " فجعلهم كعصف مأكول (٥) الفيل ".. لأن العصف قد أكلته الدواب وهضم في أمعائها ثم أخرجت روثه فتحول من جنسه إلى جنس آخر.. وقد تلاءم كل منزع مع سياقه فثمود قوم صالح أرسلت عليهم صيحة واحدة أهلكتهم فصاروا كهشيم المحتظر وأصحاب الفيل جعل ربك - جل في علاه - كيدهم في تضليل " وأرسل عليهم طيرا ابابيل (٣) ترميهم بحجارة من سجيل (٤) فجعلهم كعصف مأكول (٥) الفيل ... هنا إبعاد في الإهلاك يتلاءم مع ما أهلكوا به.. وفي سورة " القمر " قرب في الإهلاك يتلاءم أيضا مع ما أهلكوا به.

وفي ختام السورة الكريمة نجد منزع تصوير أمر الساعة عند مجيئها.. لمحا بالبصر.. " وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر (٥٠)

Scanned by CamScanner

القمر" ونجده في سورة " النحل " لمح البصر أو هو أقرب.. " ولله غيب السماوات والأرض وما أمرُ الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شيءٍ قديرٌ (٧٧) النحل ".. و" لمح البصر" أسرع من " لمح بالبصر" فهم يقولون: لمح بصري أي: امتد إلى الشيء الملموح ولمحته ببصري أي: صوبته إليه وفي التصويب تراخ إذا ما قورن بالامتداد. وكذا إضافة اللمح إلى الفاعل " البصر" في سورة " النحل " أدل على السرعة واقترانه بالباء في سورة "القمر" أكسبت المعنى تراخيا ولذا جاء في سورة "النحل" بعد المنزع " أو هو أقرب " ولا يتأتى مجيء ذلك في سورة " القمر".. لقد تلاءم المنزع في سورة " النحل " مع افتتاح السورة الكريمة بقوله تعالى " أتى أمرُ اللهِ فلا تستعجلوهُ النحل:١ ".. وتلاءم المنزع في سورة "القمر" مع افتتاحها بقوله تعالى " اقتربت الساعةُ وانشقَ القمرُ (١) القمر ".. كما تلاءم مع بقية منازع التصوير في السورة الكريمة.. فالامتداد والتراخي في هذا المنزع " كلمح بالبصر يتآلف وينسجم مع قوة الجراد المنتشر ومع صلابة أعجاز النخل المنقعر ومع قرب الهشيم المحتظر، إذ العصف المأكول أبعد منه في الإهلاك على نحو ما بينا.

ومنزع تصوير الخروج من الأجداث في سورة " المعارج " يتلاءم مع السرعة التي صرح بها في جانب المشبه " يومَ يخرجُون من الأجداث سراعا ".. ومع افتتاح السورة بسؤال الكافر عن العذاب مستعجلا إياه " سأل سائلٌ بعذابٍ واقعٍ (١) للكافرين ليس لهُ دافعٌ (٢) المعارج ".... ومع ما أبرز في السورة من الهلع والعجلة التي فطر عليها الإنسان " إنَ الإنسان خلق هلوعا (١٩) إذا مسهُ الشرُ جزوعا (٢٠)

وإما مسة الخير منوعا (٢١) المعارج ... ان المنزع هنا وهو: كأنهم
إلى نصب يوفضون .. يتلاءم مع ما برز في السورة الكريمة من العجلة
والتعجل والسرعة والهلع.. وفي اصطفاء التعبير بالنصب وجعل
الإفاض اليها ما يدل على ما كانوا عليه فى الدنيا.. فقد كانوا يسرعون
إلى عبادة الأوثان وهم فرحون لاهون.. أما اليوم فيسرعون خاشعة
أبصارهم ذهولا من هول الموقف تغشاهم الذلة والمهانة خاشعة
أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون (٤٤) المعارج ..
وفي اسراعهم وهم على هذه الحال مالا يخفى من السخرية والتهكم بهم
ومن التحسر والندم الذي يعتريهم.[١]

ويأتى المنزع في سورة القارعة " الفراش المبثوث متلائما مع
الشدة التي بدت في افتتاح السورة الكريمة " القارعة (١) ما القارعة
(٢) وما أدراك ما القارعة (٣) القارعة ".. فتلك الشدة قد جعلت الناس
كالفراش المبثوث ضعفا وتخاذلا حيث يضرب المثل بالفراش في الوهن
والخفة والتهافت والطيش يقولون: " أطيش من فراشة ".[٢]

وفي إيثار التعبير بالبث والإتيان به اسم مفعول مبثوث ما
يشعر بالتخاذل والضعف وعدم التماسك ففي المنزعين الأولين " الجراد
المنتشر.. وإلى نصب يوفضون " عبر باسم الفاعل " منتشر " وبالفعل
المبنى للفاعل يوفضون " فكان في كلا المنزعين قوة وصلابة تلاءمت
مع بداية الخروج في الأول والسرعة والتعجل في الثاني وهنا لاءم

[١] انظر في ظلال القرآن ٦ / ٣٧٠٣
[٢] انظر مجمع الأمثال ٢ / ٢٩٩

Scanned by CamScanner

القرع الذي افتتحت به السورة " القارعة ما القارعة " أن يكون المشبه موحيا بالضعف وعدم التماسك فرأيناه فراشا مبثوثا.

إنّ كل تشبيه من هذه التشبيهات يبرز جانبا ويكشف عن حال من أحوال الناس في ذلك اليوم والجانب الذي يبرزه التشبيه نراه متلائما مع السياق متآخيا مع المعنى الذي يفيض فيه.

بين: موج كالجبال.. وموج كالظلل

جاء تشبيه الموج بالجبال في قوله تعالى "وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوحٌ ابنَهُ وكان في معزل يا بُنيَّ اركب معنا ولا تكن مع الكافرين (٤٢) قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين (٤٣) هود ".. وجاء تشبيهه بالظلل في قوله تعالى " وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور (٣٢) لقمان ".

إن تشبيه الموج بالجبال **في الموضع الأول يدل على عظم الموج** وضخامته وشدة ارتفاعه.. وقد **اقتضى المقام ذلك.. إنه الطوفان الذي** ستنتهي به حياة الكفرة ومعهم **ابن نوح – عليه السلام – الذي رفض** نداء أبيه: " يا بُنيَّ اركب معنا ولا تكن مع الكافرين " **قائلا: " سآوي إلى** جبل يعصمني من الماء "... **فجاءه الموج الذي كالجبال... " وحال** بينهما الموج فكان من المغرقين ".

وتشبيه الموج بالظلل **في الموضع الثاني يدل على التخويف** والتفزيع وقد اقتضى المقام **ذلك.. فهؤلاء قوم ينسون الله عند الرخاء**

ويذكرونه عند الشدة وهم الآن قد غشيهم موج.. إن حالهم تقتضى أن يكون هذا الموج كالظلل ففى هذا من التخويف لهم والترهيب ما لا يخفى.

لقد جاءت منازع التشبيه فى النظم الكريم متسقة مع ما يقتضيه السياق فعندما اقتضى السياق الدلالة على الضخامة وشدة الارتفاع شبه الموج بالجبال وعندما اقتضى الدلالة على الترهيب والتخويف شبه بالظل ومثل ذلك تشبيه الجبل بالظلة فى مقام التخويف والترهيب.. قال تعالى: " وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم الاعراف .. فالظلل والظلة يؤذنان بالإحاطة والإطباق. وعندئذ يشتد الخوف وتبلغ القلوب الحناجر ويأخذ الفزع منهم كل مأخذ.. وعندما اقتضى المقام الجمع بين الدلالة على جمال الفلك الجارية فى البحار والدلالة على ضخامتها شبهت بالأعلام..

قال تعالى: " ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام (٣٢) الشورى... ولله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام (٢٤) الرحمن فالأعلام مفردها: علم والعلم هو الجبل ولكن العلم ينفرد بالدلالة على الزينة والجمال ولذا اصطفيت الأعلام هنا دون الجبال لتشبه بها الفلك الجارية فى البحار إذ المراد الجمع بين الدلالة على ضخامتها والدلالة على جمالها.

بين: تشبيه الحور العين.. وتشبيه الولدان

جاء تشبيه الحور العين فى النظم الكريم بالياقوت والمرجان وباللؤلؤ المكنون والبيض المكنون.. قال تعالى " فيهن قاصرات الطرف لم

يطمثهنّ إنسٌ قبلهمْ ولا جانٌّ (٥٦) فبأيّ آلاء ربكما تكذبان (٥٧) كأنهن الياقوتُ والمرجانُ (٥٨) الرحمن... وحورٌ عينٌ (٢٢) كأمثال اللؤلؤ المكنون (٢٣) الواقعة... وعندهمْ قاصراتُ الطرف عينٌ (٤٨) كأنهن بيضٌ مكنونٌ (٤٩) الصافات "..

وجاء تشبيه الولدان والغلمان مرة باللؤلؤ مكنونا ومرة باللؤلؤ منثورا قال تعالى " ويطوفُ عليهمْ غلمانٌ لهمْ كأنهمْ لؤلؤٌ مكنونٌ (٢٤) الطور... ويطوفُ عليهمْ ولدانٌ مخلدونَ إذا رأيتهمْ حسبتهمْ لؤلؤا منثورا (١٩) الإنسان ".

في تشبيه الحور العين رأينا المشبه به: " الياقوت والمرجان واللؤلؤ المقيد بالكن " اللؤلؤ المكنون " وبيض النعام المقيد - أيضا - بالكن " بيض مكنون ".. وفي تشبيه الغلمان والولدان رأينا المشبه به اللؤلؤ الذي قيد مرة بالكن ومرة بالنثر " لؤلؤ مكنون ".. و" لؤلؤا منثورا "..

وتوحي هذه المنازع **بمعان جليلة وغايات سامية نلخصها فيما** يلي:

١- الدلالة **على الجمال الفائق والنقاء التام والصفاء الكامل** الذي حباه الله - عز وجل - **الحور العين وخصهن به وفطرهن عليه** هن والولدان والغلمان.. **توحي بذلك منازع التشبيه: الياقوت والمرجان** واللؤلؤ وبيض النعام.. **كما يوحي به ذلك القيد " مكنون " فبيض النعام** المكنون بريشه يُصان **بهذا الكن من الغبار ونحوه فيبقى نقاؤه، ويظل** لونه الأبيض المشوب **بصفرة صافيا لا يتغير.. واللؤلؤ المكنون في**

Scanned by CamScanner

صدفه يبقى جماله ويدوم نقاؤه حيث يحفظه الصدف مما قد يقع عليه او يصيبه من العوامل المغيرة له.

٢- يوحي تشبيه الحور العين بالبيض - بيض النعام - بما ينبغي على الرجال إزاء النساء - نساء الدنيا - من اللين والترفق بهن فبيض النعام فضلا عن صفائه ونقاء لونه ينبغي أخذ الحذر والحيطة عند التعامل معه.. وكان - صلى الله عليه وسلم - يأمر بالترفق بالنساء فقد قال لأنجشة عندما رآه يحدو الإبل ويحثها على السير فتنشط ويشتد سيرها وتهتز الهوادج بالنساء وتضطرب قال له - صلى الله عليه وسلم -: " يا أنجشة رويدك رفقا بالقوارير ".[1]

٣- تقييد اللؤلؤ والبيض بالكن في تشبيه الحور العين كامثال اللؤلؤ المكنون... كأنهن بيض مكنون " قد دل على كمال النقاء وتمام الصفاء - على نحو ما رأينا - كما أنه يشعر بما يجب على النساء من الاكتنان والاستتار.. والاختباء وراء الحجاب.. وفي اصطفاء التعبير بصيغة المفعول " مكنون " ما ينبئ بأن تلك مهمة الرجال ومسئوليتهم تجاه نسائهم ولذا جاء قصرهن في الخيام - أيضا - بصيغة المفعول حورٌ مقْصُوراتٌ في الْخِيامِ (٧٢) الرحمن "... فالكن والقصر في الخيام واقع عليهن حفظا لهن وتكريما.. أما قصر الطرَف على أزواجهن حياء فقد جاء بصيغة الفاعل " وعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) الصافات... وعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ (٥٢) ص... فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ

(١) رواه البخاري في الأدب: ١١٦ / ٦٢١٠

الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٥٦) الرحمن "... جاء هذا القصر بصيغة الفاعل لأنه واقع منهن فهن فاعلاته.

٤- جاء اللؤلؤ في تشبيه الولدان والغلمان مرة مكنونا ليدل على بقاء الجمال وكماله ودوام الحسن وتمامه " وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (٢٤) الطور ".. ومرة منثورا أي: قد نثر من صدفه أو من سلكه ليدل على انتشارهم في المجالس وامتلاء تلك المجالس بحسنهم وجمالهم " وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا (١٩) الإنسان ".. كما يشعر هذا التنوع بأن الغلمان والولدان لا يجب عليهم ما يجب على النساء من الاكتتان والاستتار.

من خلال تلك التشبيهات التي عرضنا لها يتجلى لنا أن التنوع في منازع التصوير في آيات الذكر الحكيم يحتاج إلى جهود الدارسين المجدين والباحثين المخلصين؛ لأن وراءه من الأسرار واللطائف والمزايا البلاغية ما يتطلب من هؤلاء وأولئك أن يتصدوا لدراسته، وينهضوا بإبرازه وتجليته، ونحن لم نتجاوز في هذا البحث منازع التصوير المفردة؛ لأننا بصدد الحديث عن الكلمة القرآنية ولذا وقفنا أمام التشبيهات المفردة.. المجردة والمقيدة.. وألقينا الضوء على منازعها وما بين هذه المنازع من فروق وقد تبين لنا مدى انسجام تلك المنازع في سياقها ومدى تآلفها مع المعنى الذي يفيض به السياق ومع المعنى المراد تصويره.. ففي سياق الحديث عن سفينة نوح - عليه السلام - عندما أريد الدلالة على ارتفاع الموج انتزعت تلك الدلالة من الجبال " وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ هود" وعندما أريد الدلالة على جمال

السفن الجارية في البحار وضخامتها انتزعت تلك الدلالة من الأعلام ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام (٣٢) الشورى... وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام (٢٤) الرحمن" وكل منزع قد انسجم في سياقه فلا يتأتى أن تستبدل بالجبال الأعلام ولا بالأعلام الجبال.. السياق يرفض والمعنى يتأبى.. وهكذا القول في جميع منازع التصوير التي قد عرضنا لها.

إنّ دراسة أسرار التنوع في آيات الذكر الحكيم.. في ميدان تصوير هلاك الأمم المكذبة.. في ميدان الحديث عن الجنة والنار وتصوير نعيم الجنة وطعام أهل النار.. في ميدان تصوير الحياة الدنيا.. في ميدان الأمثال وضربها للناس.. إلى غير ذلك من الميادين القرآنية.. تحتاج إلى جهود مخلصة من الباحثين والباحثات.

لذا نوصي بالتوجه إلى تلك الميادين ودراسة أسرار التنوع فيها دراسة متأنية واعية.. كما ننصح كل من يتوجه إلى هذه الدراسات القرآنية أن يصبر على فهم آراء العلماء ويتأنى في مراجعة كلام المفسرين ويحسن الإفادة منه، وأن يحذر القول بالرأي دون سند إلى كلام العلماء وحسن استنباط منه.

هذا والله ولي التوفيق.. وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحابته أجمعين.. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

.....

Scanned by CamScanner

مصادر البحث

- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي.. طبعة الحلبي
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود.. طبعة دار الفكر
- أسباب النزول للنيسابوري.. طبعة مكتبة الدعوة بالقاهرة
- أسرار البلاغة لعبد القاهر.. طبعة المدني
- أساس البلاغة للزمخشري.. طبعة دار النفائس ببيروت
- الإعجاز البلاغي د/محمد أبو موسى.. طبعة مكتبة وهبة
- إعجاز القرآن للباقلاني.. طبعة دار المعارف
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي.. طبعة مؤسسة المختار
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي.. طبعة الحلبي
- الإيضاح للخطيب القزويني.. طبعة صبيح
- البحر المحيط لأبي حيان.. طبعة دار الفكر
- البرهان في علوم القرآن للزركشي.. طبعة دار التراث بالقاهرة
- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزابادي المكتبة العلمية ببيروت
- بين حقائق العلم وبلاغة القرآن د/إبراهيم الجطي.. مطبعة الحسين الإسلامية
- التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور.. طبعة الدار التونسية
- تفسير ابن كثير.. طبعة الحلبي

Scanned by CamScanner

- تفسير الجلالين.. طبعة دار التراث بالقاهرة
- تفسير الطبري لابن جرير.. طبعة دار المعارف
- تفسير الفخر الرازي.. طبعة دار الفكر
- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي.. طبعة دار الكتب العلمية ببيروت
- دلائل الإعجاز لعبد القاهر.. طبعة المدني
- روح المعاني للألوسي.. طبعة دار إحياء التراث العربي ببيروت
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر. ط دار إحياء التراث العربي بيروت
- فتح القدير للشوكاني.. طبعة دار المعارف ببيروت
- الفتوحات الإلهية للجمل.. طبعة الحلبي
- في ظلال القرآن لسيد قطب.. طبعة دار الشروق
- الكشاف للزمخشري.. طبعة الحلبي
- لسان العرب لابن منظور.. طبعة دار المعارف
- مجمع الأمثال للميداني.. طبعة دار الجيل ببيروت
- مسند الإمام أحمد.. طبعة مؤسسة الرسالة
- من روائد نهر الإعجاز البلاغي د/بسيوني فيود.. طبعة مؤسسة المختار
- النبأ العظيم د/ محمد عبد الله درار.. طبعة السعادة
- نظم الدرر للبقاعي.. طبعة دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة

Scanned by CamScanner

النهاية في غريب الحديث والأثر لمجد الدين بن الأثير.. طبعة دار الفكر ببيروت

.....

.....

Scanned by CamScanner

محتويات البحث

الموضوع

أ) تمهيد

ب) استعمالات كلمة (الرأس) في القرآن الكريم

ج) الفتيل والنقير والقطمير

د) السنة والعام والحول والحجة

هـ) من أسرار التنوع في منازع التصوير

١ - تصوير الجبال

٢ - تصوير خروج الناس من الأجداث

٣ - بين موج كالجبال وموج كالظلل

٤ - بين تشبيه الحور العين وتشبيه الولدان

ز - مصادر البحث

ح - محتويات البحث

Scanned by CamScanner